

شعرية السرد التاريخي  
من خلال "تاريخ الأمم والملوك" للطبري  
خبر مقتل "عثمان بن عفان" نموذجاً

د. / شكري الطوانسي  
آداب الزقازيق

(١)

يعد التاريخ شكلاً خطابياً يطرح، بمرجعياته الواقعية الحقيقية، وبإجرائيته التحقيقية والنقدية للمصادر والوثائق – اختلافه وتميزه عن الخطاب التخيلي الذي يتعلّق بالمحتمل/ الممكن. وهو اختلاف لا تنكره أى من التاريخيات historicities، خاصة تلك التى ترى فى التاريخ نوعاً من المعرفة العلمية الكلية التى تستهدف فهم الماضى وحقيقته، وتخضع لشروط الموضوعية objectivity، وفق مفاهيم كالسببية، والقوانين العامة الشاملة. غير أن هذا الاختلاف (الإبستمولوجى والميثودولوجى) لا يمكنه اختزال القصيدة التاريخية historical intentionality، واستيعاب إشكالياتها المتعلقة بحقيقة الموضوعية التاريخية، أو حقيقة الماضى وواقعيته. فالتاريخ ليس عرضاً مباشراً للماضى عبر مجموعة من الوقائع والوثائق بقدر ما هو إعادة تسجيل وصياغة وتصوير. إنه تمثيل للماضى بعد انقضائه. حيث لم يتبق منه سوى آثار، الأمر الذى يجعل منه تذكراً، استرجاعاً، استعادة لما تم بالفعل، يتعين فيها على المؤرخ أن يحافظ على راهنية الحدث بالنسبة لفاعليه التاريخيين، دون السقوط فى «وهم القدرية الاستعادي/ الاسترجاعي» the retrospective illusion fatality<sup>(١)</sup>، حيث يؤدى استرجاع الأحداث الماضية، فى ظل معرفة المؤرخ بمستقبلها أو عواقبها، ويقينه بها غير المتاح للفاعلين التاريخيين – إلى إظهارها بمظهر الضرورة أو الحتمية، وإهمال ما لها من طابع فردي، أو استثنائي فريد، أو عرضي، أو جزئي، أو غير مقصود، أى بإضفاء اليقينية certainty على ما كان بالنسبة لفاعليه احتمالاً، توقعاً، ترقباً، نسبياً، وهو (أى وهم القدرية) ما لا يتمكن المؤرخ من تقايدته والإفلات منه، خاصة لما يتيح الإدراك المؤخر hindsight للأحداث والأفعال بعد وقوعها – من معرفة أعمق بها، وبناتجها الحقيقية ما كان منها مقصوداً أو غير مقصود، وبوجوه ترابطاتها مع غيرها. ومن هنا كان تأكيد Danto على أن "... أوصاف المؤرخ للأحداث الماضية تنبثق من الوعى بنتائجها.. فلا يمكن أن ينجز وصف حاسم ما لم يمر الزمن، وينكشف المزيد من النتائج..."<sup>(٢)</sup>. فالوعى بالنتائج أو العواقب، الوعى بالمستقبل – حقيقة أو توقعاً أو تخيلاً – يؤدى بالمؤرخ إلى معرفة جديدة (ومتناسكة) بالماضى، لم تكن متاحة من قبل (لفاعليه)؛ ويمنحه تميزاً أو سلطة من نوع ما.

إن تفعيل التاريخية للمستقبل رجوعاً نحو الماضى، ومن أجله، أى استعادة الماضى المعيش (تاريخياً)، والعودة إليه، وإعادة تسجيله (داخل الزمنية temporality، أى زمان العالم، الزمان المشترك، التقويم/ التوقيت) – يجعلها (أى التاريخية) تتطوى على علاقة جدلية متداخلة بين الماضى والمستقبل (والحاضر أيضاً)، تنتكر لخطية المسار وتواصله وأحاديته، وتعى التباسات الزمن المعيش

(الفينومينولوجي)، بحيث تعد - في حقيقتها - وفقاً لـ Heidegger: "... «... تأريخاً أو أرخنة historizing للوجود - في - العالم»...»<sup>(٣)</sup> (للموجود - هناك، الموجود - باتجاه)، وصفة له، تنفى عن التاريخ أن يكون مجرد توال أو تتابع أو تعاقب لعدد من اللحظات أو الأحداث والأفعال والوقائع البسيطة والمتفرقة والمنفصلة، أو من الحقائق العامة المجملة totalizing، أو المطردة والمتكررة (استناداً إلى قانون شامل)؛ أو من البقايا والآثار البريئة (العاجزة عن تجاوز نفسها)، أو الدالة بنفسها عما لم يعد له وجود، أو عبر صوت محايد هو صوت المؤرخ، خارجي بالنسبة لها بطريقة أو بأخرى، وكلية المعرفة omniscient - لذلك أو بالرغم من ذلك - في الآن نفسه.

فالمعرفة التاريخية تنهض على اتصال ما بين المؤرخ وواقع تاريخي محدد، عبر وثائق تمتلك قدرة كشفية وبرهانية proof تعد بالضرورة - بما هي آثار وبقايا - غير مكتملة وغير قاطعة وغير مكتفية بذاتها، مما يجعلها (أي المعرفة التاريخية) نتاجاً لعلاقة الاتصال والارتباط التي تعيد تمثيل ذلك الواقع (التاريخي) وتشبيده، وبناء حقيقته، في إطار عمليات من الاختيار والانتقاء والتحقيق والاستنتاج والتنظيم ... إلخ. فالحقيقة (التاريخية) "... لا تمثل، بالضرورة، ما يوحي النص [ أي الوثيقة هنا ] بأنه حقيقي.."<sup>(٤)</sup>، وإنما يتم إنتاجها وبنائها، على نحو يتسم بمعقوليتها ومقبوليتها وقابليتها للمتابعة، بما تنطوي عليه من فهم وإعادة تصور وبناء، للأسباب والدوافع والمحفزات والمقاصد، ولتتابعات الأحداث وترابطها، وعلاقتها بغيرها، مما يؤدي إلى طرح تفسير كاف ومقتع لمسارها ونتائجها، لا يتجاوز سياقها (التاريخي) وشروطه وقبوده، إلا بقدر ما تشهده من إنشاء أو وجود (زمني/ تاريخي) جديد (مفترض إلى حد ما)، داخل خطاب مترابط يحفظ لها واقعيته التاريخية، في الوقت الذي لا تتجوف فيه - بعرضها وبنائها ومعناها وتفسيرها - من آثاره. فالتاريخ - بوصفه خطاباً - يطرح عدداً من الإشكاليات من قبيل: من يكتب التاريخ؟ وكيف؟ ومن أي موقع؟ ووفق أية أيديولوجيا؟ وفي خدمة أية قوى أو مصالح أو سلطات أو ...؟ وإلى من يتوجه بخطابه؟ ... إلخ، بما يؤكد أن المؤرخين ليسوا رواة أخبار، وأن التاريخ ليس مجرد تسجيل للماضي وتناقل لآثاره، حفاظاً عليه في مواجهة النسيان. الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى التاريخ (أو الخطاب التاريخي) "... بوصفه تأويلاً..."<sup>(٥)</sup> لا يمكن إنجازَه بمعزل عن الذوات المؤولة ونسيان تاريخياتها باختلافها وتعددتها. إنه رؤية، طريقة في الفهم، تصل الغيرى بالذاتى، والماضى بالحاضر، محتفظة لنفسها بحق الاختلاف، تقترحها ذات من موقع خاص، بصدد آخر أو موضوع منفصل عنها بطريقة أو بأخرى، متوجهة إلى متلق يحتل - بدوره - موقعاً (تاريخياً واجتماعياً وثقافياً) محددًا، منشغل بفهم وجوده وتشبيده هويته. مما يعنى أن الكتابة التاريخية - فى نزوعها العلمى واستهدافها الحقيقة - ليست فعلاً أو خطاباً محايداً، بقدر ما هى ممارسة أيديولوجية ونقدية، خاصة فيما قد يكون له صلة بالمؤرخ، أو يثير شعوراً إنسانياً كبيراً بالرعب أو الإعجاب. لا مفر - إذن - للكتابة التاريخية من آثار الأيديولوجيا صريحة أو متسترة، بما هى - فى حقيقتها - ... ليست (تاريخاً) عن history of، يقدر بما هى دائماً (تاريخ) من أجل history for، ليس بمعنى أنها مكتوبة بقصد أيديولوجى ظاهر للعيان فحسب، بل كذلك باتجاه جمهور أو جماعة اجتماعية بعينها.<sup>(٦)</sup>

ولا يكون الخطاب التاريخي فهماً، تفسيراً، تأويلاً، حاملاً لأيديولوجيا ما، بل لا يكون منتجاً للحقيقة على نحو مقبول – بمادته أو مرجعيته الواقعية بالدرجة الأولى، وإنما بطريقة عرضها وتناولها وتصورها. فما يفهم .. بوصفه محتوى الخطاب إنما يتأثر *be influenced by* بطريقته فى العرض...<sup>(٧)</sup>، فالعرض *presentation* يجعل من مجرد تعاقب زمنى، أو شتات وبقايا من الأحداث والأخبار والقصص المعيشة، من المادة التاريخية التى هى بمثابة "...«سجل تاريخى غفل» *unprocessed* .. أى خلفية سابقة على التصور *preconceptual* ..."<sup>(٨)</sup>؛ يجعل منها خطاباً مترابطاً متماسكاً مقبولاً وقابلًا للفهم والمتابعة، بما يملكه من تصور، ومن قدرة على نقل التجربة المعيشة فى التاريخ/ الزمن، وتحويلها إلى ما يشبه مروييات أو محكيات تعيد تصويرها، وتشخيصها، وتمثيلها، استناداً إلى الطبيعة السردانية *narrativistic* للزمان، حيث "... كل سيرورة زمنية لا يعترف لها بهذه الصفة، إلا بقدر ما هى قابلة للحكى بطريقة أو بأخرى..."<sup>(٩)</sup>، بمعنى أن كل تجربة زمنية معيشة – واقعاً أو احتمالاً – لها بعدها السردى الذى يجعلها قابلة للحكى و المتابعة، وجديرة بأن تعاش مرة أخرى عبر تمثيلات خطابية مختلفة كالقصص التخيلية *fictional* والتاريخ؛ لما فيها (أى التمثيلات) من واقعية أو إيهام بها، ولما تطرحه من تفسيرات للتجربة الإنسانية عبر الزمن، ومحاولات لفهمها، بالإضافة إلى أن مثل هذه التمثيلات الخطابية – السردية إنما تلبى نزوعاً أو ميلاً إنسانياً نحو السرد/ الحكى، أدخل إلى البديهيات أو الحقائق الثابتة. فالبشر رواة/ حكاؤون *story – tellers* بصورة أساسية، كائنات سردية *narrative beings*<sup>(١٠)</sup> – بقدر ما هم كائنات تاريخية، يتابعون ما يروى فى القصص والتاريخ، ويقبلونه، بما يعيشونه واقعاً، وما يعرفونه، من قصص حيواتهم.

التاريخ – بمعنى من المعانى – هو سرد حقيقى واقعى، فى مقابل السرد التخيلى، وهو ليس كذلك إلا بالنظر إليه بوصفه تفسيراً، تأويلاً، يتجاوز مجرد الشرح العلمى الموضوعى الذى يأخذ بمنهج العلوم الطبيعية التى تبحث فى الأسباب والنتائج وفق قوانين سببية عامة وشاملة ومطردة؛ ويتجه (أى التفسير التاريخى) إلى فهم الأحداث والوقائع وفق عمليات إعادة تصور وصياغة وتصوير: تمثيل، وتشخيص، واستدلال، واستنباط، وتأويل – تمتد إلى مقاصد الفاعلين التاريخيين ودوافعهم النفسية الداخلية، كل ذلك من أجل معرفة تاريخية، لا تعارض الوثائق والمصادر، ولا تقل فى واقعيته عن تلك التى يطمح إليها الشرح التاريخى، بل تتجاوزه باستغلال الفعالية السردية – لكل التجارب الزمنية – وقدرتها التفسيرية. ومن هنا كان اهتمام النظرية التاريخية المعاصرة، وتحديداً التاريخية الجديدة، بسردية التاريخ *narrativity of history* بوصفها – كالتخيل والحاضر – جزءاً من محتوى التاريخ أو طبيعته، ومن فهمه التفسيري<sup>(١١)</sup>، على نحو يكون التاريخ بمثابة محكى أو سرد يقترح طريقة خاصة فى إعادة صياغة التجربة الإنسانية فى الزمن وتمثيلها وفهمها، من قبل سارد *narrator* (أى المؤرخ) لا يقنع بدور راوى الأخبار أو الراوى المثالى، وانطلاقاً من النزوع نحو الحكى أو القصص ومتابعتها من جانب القراء. ويصل الجدل حول سردية التاريخ إلى حد اعتبارها شرطاً لتاريخيته، فليس بمقدور التاريخ – فيما يرى Ricoeur – "... أن يقطع كل علاقة مع السرد، دون أن يفقد طبيعته *character* التاريخية..."<sup>(١٢)</sup>، وبالتالي لا يكتسب الحدث تاريخيته بمجرد حدوثه أو وجوده فى الزمان، وجوده –

هناك، بل بقابليته للسرد، أى بوجوده أو تعلقه بزمنية خاصة مختلفة لا تتأسس على مجرد التتابع أو التسلسل succession (فى وقت تراجع فيه فكرة التتابع الزمنى فى انطولوجيا الزمن والتاريخ<sup>(١٣)</sup>)، بل تضعه، كما تضع التغييرات والتحويلات والاختلافات والتعارضات والانقطاعات، ضمن استمرارية لا تدين كثيراً — فى وحدتها وترابطها وتواصلها — إلى التعاقب أو التتالى الخطى. يصبح الحدث تاريخياً باتدماجه فى متوالية من الأحداث، من خلال، وبفضل، بنية منطقية مترابطة متماسكة منسجمة تجعل منها تجربة إنسانية (زمنية) معيشة يمكن أن تروى، ومن ثم تكون قابلة للمتابعة والفهم والتصديق بواقعيها ومعقوليتها. هذه البنية التى تجعل من متوالية من الأحداث المتنوعة والمتنافرة والمفككة — تجربة إنسانية أو كلية زمنية مروية، أى تجعلها بمثابة قصة/ حكاية story (فريدة منسجمة)، وتتوسط بينهما (أى بين الأحداث والحكاية، بين المعيش الزمنى والفعل السردى)؛ هذه البنية هى ما تسمى «الحبكة» plot، أو «الحبك» emplotment. ومن ثم فإن "... بناء حبكة لمتوالية من الأحداث، أى تحويل ما يظل من غير هذا البناء مجرد عرض زمنى للأحداث، إلى قصة — يعنى إحداهن وساطة بين الأحداث وبعض التجارب الإنسانية الكلية فى الزمانية. ويصح هذا على القصص الخيالية، كما يصح على القصص التاريخية..."<sup>(١٤)</sup>. معنى ذلك أن الحدث إنما يكون كذلك بدوره فى سير القصة وتقديمها، أى بسرديته لا بحدثيته. والحبكة هى التى تمنحه سرديته: التخيلية أو التاريخية/ الواقعية. وبعبارة أخرى: الحبكة هى ما تؤهل أحداثاً لتكون قصصية أو تاريخية. وهنا يقترب التاريخ والقصص من بعضهما البعض، بتعلقهما بتجربة إنسانية فى الزمان، وبانتمائهما إلى نمط بنائى — تركيبى واحد هو البناء السردى، أى الحبكة التى هى — فى جوهرها — عملية تأليف، تبين، تنظيم، تصوير وتمثيل وإعادة تصور، انطلاقاً من قصد للمؤرخ/ السارد أو تصور أو رؤية أو موقف خاص، وباتجاه فهم التجربة الزمنية المعيشة واستيعابها وتفسيرها ومنحها معنى، بتصورها كلاً متماسكاً، استناداً إلى فعالية السرد وقدرته المحاكاتية الشارحة، بحيث يصبح عمل المؤرخ/ السارد "... «بمثابة محاولة لنقل to communicate تجربته فى رؤية الأشياء معاً seeing-things-together بأسلوب الواحد بعد الآخر one-thing-after-another السردى بالضرورة»<sup>(١٥)</sup>، مطوراً من كفاءتنا فى تأمل التجربة (الزمنية) وتمثلها وفهمها وتفسيرها. الأمر الذى يسمح بالقول بأن "... التاريخ محض only بناء لحبكات وفهم لها..."<sup>(١٦)</sup>. وما نفعه بالتالى — مؤرخين وقراء — بصدد التاريخ هو مجرد فهم لحبكات «ه»، وما تقترحه من تفسيرات قابلة للجدال والنقد، وغير خارجية بالنسبة للفهم التاريخى أو المعرفة التاريخية، بل هى مما يدخل فى تكوينه (أو تكوينها).

يتجه التاريخ — كالقصص تماماً — إلى بناء حبكات أو بنى سردية، عبر تمثيلات خطابية/ لفظية، مما يعنى أصالة السردية وفعاليتها فى تكوين الخطاب التاريخى، يكشف عن عمق العلاقة بين التاريخ والقصص، علاقة التشابه والتقارب التى قد تدفع بهما بعيداً إلى التقاطع والتداخل وتبادل المقولات والتقنيات، على نحو إن لم يؤد إلى اعتبار التاريخ نوعاً أو ضرباً species من القصة story، أو قصصاً أو تخييلات لفظية verbal fictions، أو «صنعة أدبية» literary artifact<sup>(١٧)</sup> — فإنه يؤكد علاقة جدلية بينهما تصل إلى حدودها القصوى، دون "... أن تكون مباشرة على نحو يمكن معه اعتبار

التاريخ ببساطة نوعاً من جنس القصة...<sup>(١٨)</sup>، وتجريده — بالتالى — مما يتمسك به ويدعيه من علمية وواقعية.

غير أن التاريخ / الخطاب التاريخي، بما هو سرد وبناء حكايات، وبما هو تمثيل لغوى أو تصوير للفعل الإنسانى فى الزمن، وبعد انقضائه — لا يغدو بمقدوره تفادى أو تجنب العناصر التخيلية أو الأدبية، لا على أنها آثار أو مظاهر ثانوية جانبية، بل هى مما تشكل سماته النوعية الخاصة. هى جزء من محتواه إلى جانب ما هو حقيقى/ واقعى منه، كما هى — أيضاً — محدد أساسى لما يأخذه من أشكال وصيغ. وهو ما يؤكد H. White ، على طريقته فى النظر إلى السرد/ المحكيات التاريخية، حيث يذكر أن "... محتوياتها مخترعة invented بقدر ما هى موجودة found، وأن لها من الأشكال المشتركة مع مثيلاتها فى الأدب أكثر من تلك التى لها فى العلوم..."<sup>(١٩)</sup>. مثل هذه النظرة — على ما فيها من مبالغة يختلف حولها المؤرخون والفلاسفة دون أن يتمكنوا من رفضها أو تجاهلها — لا تقيم تعارضاً بين «ما يقول» — التاريخ، أى مرجعيته (الواقعية/ الحقيقية)، وبين «الكيفية» التى يقول بها، أى البناء السردى/ الحكبة والسمات اللغوية والأسلوبية والبلاغية والمجازية، تلك التى تميز السرد التخيلية (الأدبية) بالدرجة الأولى، لا تعارض — داخل السرد التاريخى — بين مرجعية حقيقية واقعية (تستلزم لغة توصيلية/ تداولية)، وبين بناء أو حبكة مفترضة ولغة تصويرية مجازية، أى "... إن ما يقال يوازى فى أهميته الكيفية التى يقال بها..."<sup>(٢٠)</sup>، والعكس كذلك صحيح، فالسرد التاريخى إذ يعتمد إلى اللغة الأدبية المجازية، فهو لا ينفصل عن مرجعه، ولا يضحى بالمطابقة معه، كما لا يتخلى عن معناه وحقيقته، ذلك أن اللغة الأدبية بعداً معرفياً لا ينفصل عن وظيفتها الجمالية، بالنظر إلى ما تنتج من معنى هو بمثابة حقيقة أو إيهام بها أو دفع نحو الاقتناع بها؛ وبالنظر أيضاً إلى أن اللغة عموماً — فى صورتها التوصيلية التداولية أو النفعية — ليست وسيطاً محايداً بأية حال من الأحوال؛ ومن ثم لن تكون اللغة التاريخية لغة مطابقة وحيدة، خاصة "... عند أولئك المؤرخين الذين يعون seek insight كيف يؤثر خطابهم على القراء..."<sup>(٢١)</sup>، حيث يرتد التأثير — فى جانب كبير منه باختلاف المؤرخين — إلى العناصر البلاغية<sup>(٢٢)</sup>. وهذه العناصر البلاغية والتخيلية التى لا تمثل فائضاً بالنسبة للسرد التاريخى — لا تقف عند مستوى شكل الخطاب (أى كيفية القول)، بل هى جزء من محتواه (أى ما يقوله)، ومن مرجعيته وواقعيته. فالواقع أو الماضى التاريخى لا تشف عنه — (لا تقوله) — الوثائق والمصادر، مباشرة وبصورة كاملة وصادقة. إنه مشيد — كما سبق قوله — عبر عمليات استعادة وتذكر وإعادة تصور وبناء وتصوير وتشخيص. فالسرد التاريخى يحيل إلى الماضى الواقعى الذى لم يعد موجوداً، ولا يمكن — بالتالى — معاينته والتثبت منه. إنه يقصده بطريقة غير مباشرة، رمزية أو مجازية منتجاً صورة له — أو عنه — هى جزء من مرجعيته، تمنحه تحققاً أو حضوراً من نوع ما، شبه حضور quassi-presence يجعله مرئياً أمام القارئ، فيتمثل له الماضى (الواقعى) كما لو كان حاضراً (أى «كأن» — حاضراً). وهو ما لا يحدث إلا عبر فعل «التخييل»، الأمر الذى يعنى أن السرد التاريخى لا يتجه — فى الحقيقة — حصرياً، إلى مطابقة الماضى الواقعى، التى لا يستطيعها، بل إلى احتمال المطابقة، مما يدفع به (أى السرد التاريخى الواقعى) إلى الانتقاع على آفاق المحتمل أو الممكن، على ما كان يمكن أن يحدث (فى

الماضى) أى على إمكانيات الماضى واحتمالاته التى لم تتحقق بالفعل، والتى يرى فيها Ricoeur — من الجهة المقابلة — إدراكاً أو تبييناً discern أفضل لما هو ضرورى<sup>(٢٣)</sup>. وهذا ليس ببعيد عما يصنعه السرد القصصى/ التخيلى الذى يروى الشئ أو الحدث كما لو كان ماضياً (بصيغة الماضى السردية)، بمعنى أنه يقدم الأحداث المروية المتخيلة غير الواقعية بوصفها وقائع ماضية، أى إنه يقدم شبه — الماضى quasi-past. وهنا يمكن القول إن "... ما «كان يمكن أن يحدث» — الممكن بمصطلح أرسطو — يتضمن كلاً من احتمالات potentialities الماضى «الواقعى»، والإمكانيات possibilities «غير الواقعية» للقصص الخالص pure fiction<sup>(٢٤)</sup>. وبمعنى آخر: فإن السرد التاريخى، بإحالاته (غير المباشرة) إلى الماضى الواقعى (باحتمالاته)، ليس بمنأى تماماً عن منطق المحتمل أو المتخيل السردى.

\*

تشكل — إذن — سردية الخطاب التاريخى، وإمكاناته التخيلية والأدبية/ البلاغية، التى لا تنفصل عن تعلقه بالواقعى والحقيقى، وعما ينشده من معرفة علمية كلية؛ تشكل جميعها — فى تجادلها — خصوصية هذا الخطاب فى دمج الواقعى بالمتخيل والمحمّل داخل بناء مترابط يطرح فهماً لتجربة الإنسان فى الزمن، وتتحوّل فيه، ومن خلاله، الأحداث والوقائع إلى ملفوظات أو أفعال كلامية أو خطابية يكون وجودها وتتابعها ووظائفها ومرجعيتها وفق قواعد تركيبية وتنظيمية تمثل بنيات عامة للخطاب التاريخى، أو ما يمكن أن يسمى بـ «شعرية» السرد التاريخى، التى ترتد بكل أبعادها إلى العلاقة الجدلية بين الواقعى والمتخيل/ المحتمل.

هذا التصور عن شعرية السرد التاريخى، وما يحيط به، أو يطرحه، من إشكاليات — هو ما تسعى هذه الدراسة إلى اختباره، من خلال كتاب «تاريخ الأمم والملوك»<sup>(٢٥)</sup> لواحد من أشهر المؤرخين العرب، وهو «الطبرى» (أبوجعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠هـ). وهو اختيار لا يستند إلى ما أثير حول تاريخية كتاب «الطبرى» — وغيره من أعمال المؤرخين العرب الرواد — من مأخذ، جراء انطوائه على قدر غير ضئيل من الغيبية والأسطورية وغير ذلك، مما يسهل امتثاله للتصور الذى تتبناه هذه الدراسة، إذ بالرغم من ذلك، فإن كتاب «الطبرى» — من وجهة نظر المختصين فى علم التاريخ — "... يمتاز .. ببروز أهمية الوثائق والسجلات كمصادر أصلية للكتابة التاريخية .. صار .. نموذجاً لكتب التاريخ الإسلامى العامة فى العصور التالية من جهة، كما كان مصدراً لكل من جاء بعده ... من جهة أخرى"<sup>(٢٦)</sup>. كما كان القدماء يرون «الطبرى»: "... ثقة فى نقله، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها..."<sup>(٢٧)</sup>. على أن الدراسة — هنا — ليست معنية بتحقيق تاريخية كتاب «الطبرى» ومصادره. فاهتمامها ينصرف — بحكم اختصاصها — إلى طريقة تقديم المادة التاريخية، أى تمثيلها الخطابى، لا المادة التاريخية ذاتها ومدى وثوقيتها. وإنما جاءت الإشارة (السابقة) إلى تاريخية كتاب «الطبرى»؛ لدفع المصادرة بانتماء هذا الكتاب — أو انحيازه — سلفاً للتصور المطروح هنا، رغم السعى بمشروعية الحديث عن تداخل التاريخى والتخيلى/ الأدبى فى الثقافة العربية، على نحو وضعت المعطيات التاريخية

(والدينية والعصبية والمذهبية) قريبة من الاجتماعى واليومي والسياسى والأسطورى والمتخيل، فى أشكال خطابية أو تعبيرية عدها القداماء تاريخاً.

وقد رأيت الدراسة، تدقيقاً للاختبار والمقاربة، التوقف عند: **خبر مقتل عثمان بن عفان**، الوارد ضمن تأريخ «الطبرى» لسنة «خمسة وثلاثين» فى «تاريخ الأمم والملوك» (عن طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، المجلد الثانى من السنة الأولى للهجرة لغاية السنة ٣٥ للهجرة، ص ص ٦٤٧ - ٧٠٤). ويأتى الخبر تحت عنوان: «ذكر الخبر عن قتله وكيف قتل» ص ص ٦٦١ - ٦٧٩، دون أن تفقد بعض الأخبار الأخرى التى أتت بها «الطبرى» ضمن السنة ٣٥ (فى غير الصفحات المدرجة تحت: ذكر الخبر عن قتله...) — ارتباطها بخبر القتل، مثل:

- ذكر مسير من سار إلى ذى خُشْب من أهل مصر، وسبب مسير بن سار إلى ذى المروة من أهل العراق (ص ص ٦٤٧ - ٦٦١). (ويتضمن هذا الخبر — فيما يقول «الطبرى»: "... كثيراً من الأسباب التى ذكر قاتلوه أنهم جعلوها ذريعة إلى قتله..."، ص. ٦٦١).

- ذكر بعض سير عثمان بن عفان رضى الله عنه (ص ص. ٦٧٩ - ٦٨٤).

- ذكر الخبر عن الوقت الذى قتل فيه عثمان رضى الله عنه (ص ص. ٦٨٩ - ٦٩٠).

## (٢)

يقدم «الطبرى» خبر القتل — وغيره من الأخبار — فى شكل **ملفوظات** أو **أقوال منقولة** **بإسناد**، **تشكل فى مجموعها سرداً برائياً/ غيرياً hetero-diegetic**، يقف خارجه، غير مشارك له. وهو منذ البداية — فى مقدمة أو خطبة الكتاب — يعلن انفصلاً ما عنه، ومن ثم تنصلاً من المسؤولية **تجاهه**. يقول: "وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه مما اشترطت أنى راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادئين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستكره قارئه، أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة، ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يُوتَ فى ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وأنا إنما أديننا ذلك على نحو ما أدى إلينا."<sup>(٢٨)</sup> هنا يحدد «الطبرى» **علاقته بالمروى، وبالرواة، كما يحدد علاقته بمتلقيه**. إنه يختار أن يضطلع بدور لا يكاد يتجاوز ما يرويه الرواة، ينهض فيه بعمليات جمع، ونقل، وأداء، وتأليف بين المرويّات وتأطير لها (زمنياً وموضوعياً)، وما يرتبط بذلك من انتقاء أو اختيار مرده القصور الإنسانى من ناحية، "... إذ كان الاستقصاء فى ذلك يقصر عنه العمر، وتطول به الكتب..."<sup>(٢٩)</sup>؛ ومرده — من ناحية أخرى — خصوصية لبعض المرويّات، تتيح إمكانية التوسع والاستزادة، ما يقبل منها وما يرفض، كما هو الحال مع أخبار من جاء بعد صحابة رسول الله (ع) وتابعيه (وهو ما يتوازى مع التوسع فى السند والتسامح فيه)، "... ثم متبعهم (أى الصحابة) ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان، على نحو ما شرطنا من ذكرهم، ثم ملحق بهم

ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك، وزائد في أمورهم للإمانة عن حمدت منهم روايته، وتقبلت أخباره، ومن رفضت منهم روايته، ونبذت أخباره، ومن وهن منهم نقله، وضعف خبره...<sup>(٣٠)</sup>. غير أن مثل هذا الانتقاء أو التوسع — على النحو الذى ذكره «الطبرى» — لا يهيبى أى نوع من الاندماج بالمروى، متنسقا فى ذلك مع استبعاد أى جهد نقدى أو تمحيصى أو تأويلى إلا فى: (اليسير القليل)؛ ومع إلقاء التبعة كاملة على الرواة، خاصة فيما لا تظهر صحته، وتتأكد حقيقته. الأمر الذى سيعكس حرصاً بالغاً على صحة المروى من جهة إسناده، أو بالأحرى الإيهام بها (بمجرد حضور السند، دون تحقيقه والتدقيق فى وتوقيته)، وهو حرص لا يظال المروى من جهة صدقه التاريخى — فليست الحقيقة التاريخية — فيما يبدو — مقصداً واضحاً ومعنواً لـ «الطبرى»، مما يدفع به قريباً من الإخباريين أو رواة الأخبار وناقليها أو مصنفها.

\*

يعمق «الطبرى» من خلال الإسناد، تباعده عن مروياته، ومن ثم ما يعلنه أو يدعيه من حياذ إزاءها، مستفيداً مما يحققه الإسناد من نسبة الخبر/ القول إلى قائله أو مصدره الأسمى أو مخبره المباشر؛ توثيقاً له، ونفياً لتدخل الناقلين (بمن فيهم الطبرى نفسه) بالوضع أو التصرف، وذلك فى سياق ثقافة اعتمدت طويلاً (حتى مشارف القرن الثالث الهجرى) فى تناقل المعارف والأخبار على الرواية الشفوية، أى الإسناد، والذى لم يختف مع التدوين — وإن اختلفت ضوابطه وشروطه، حتى غدا فى عصور ليست متأخرة كثيراً — تقليداً، خاصة فى مجال الأخبار: (إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادئين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين). وليس الإسناد — فى حدود هذا القول — تدليلاً على حقيقة الخبر أو اقتضاء له، بل مجرد إثبات لأصل ما، يدفع عن المؤلف أى طعن أو انتقاص.

ويكشف السند فى مرويات «الطبرى» عن عدم صحته واستوائه (أى السند)، مما يرشح — فيما بعد — لعدم دقة المروى ووثوقيته. وهو أمر لم يرغب عن «الطبرى»، إذ هو لم يشترطه فى رواية الأخبار، واعياً — فى هذا — باختلاف الإسناد فى رواية الحديث النبوى عنه فى رواية الأخبار. فهو يعتمد فى «خير القتل» بصورة أساسية على روايات «سيف بن عمر» (ت ١٨٠هـ) الذى يراه القدماء "... ضعيف الحديث، عمدة فى التاريخ..."<sup>(٣١)</sup>. وهو رأى لا يجمع بين نقيضين بقدر ما يحمل وعياً قديماً باختلاف بين الأحاديث والأخبار/ التاريخ من حيث السند والمنن، لم يستوعبه المحدثون، فلم يطمئنون إلى رواياته التاريخية<sup>(٣٢)</sup>. كما تمثل روايات «محمد بن عمر الواقدى» (ت ٢٠٧هـ) ثانى مصادر الخبر الأساسية. وهو — أيضاً — فيما يراه القدماء — متروك الحديث، واسع العلم بالمغازى والسير<sup>(٣٣)</sup>. وإذا كان ضعف «الواقدى» فى مجال الحديث لم يمنع «الطبرى» من اعتماده مصدراً أساسياً، فإنه (أى «الطبرى») — فى المقابل — لم يقصد لسعة علمه، إذ لا يتردد فى أن ينتقد رواياته، ويتشكك فيها، بعبارات تتجاوز التلميح إلى التصريح: («وأما الواقدى، فإنه ذكر فى سبب مسير المصريين إلى عثمان، ونزولهم ذا خُشب أموراً كثيرة، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة منى لبشاعته...» — ص ٦٥٦).

ويحمل السند علامات انقطاعه وعدم اتصاله. فلا يحدث تناقل للأقوال في كل ما يرويه «الطبرى» من غير استخدام «عن» (أى ما يسمى بـ «العنونة»)، التى لا تقطع باتصال مباشر، إذ قد تعنى احتمال وجود شخص (غير مذكور) توسط النقل<sup>(٣٤)</sup>، دونما إشارات واضحة على وساطته؛ باستثناء تلك الثغرة أو الفجوة «المحتملة» وغير الملموسة فى السند. هذه الاحتمالية بانقطاع السند التى تحملها «عن»، والمرهونة بما يعرف عن الراوى من صدق أو غيره؛ هذه الاحتمالية يطرحها — أيضاً — اعتماد «الطبرى» الكامل والدائم فى تقديم الخبر/ الأخبار على فعل القول (قال: )، ذلك الفعل الذى لا يحيل — بالضرورة — إلى نقل مباشر، دون الاحتكام إلى المعرفة بالراوى<sup>(٣٥)</sup>. وهو لا تنفك عنه احتماليته، بدوامه، أو بتتابعه، — الذى كثيراً ما يحدث — داخل السلسلة الإسنادية الواحدة، أو بإنتهائه — أحياناً — بصيغة غير المفرد (قالوا/ قالوا)، إيهاماً بالتطابق ووحدة القول مع تعدد الرواة: («حدثنى جعفر، قال: حدثنا عمرو وعلى، قالوا: حدثنا حسين، عن أبيه، عن محمد بن السائب الكلبى، قال: ... — ص. ٦٦٢)، («كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبى حارثة وأبى عثمان، قالوا: ... — ص. ٦٧٣). فى هذه السلاسل الإسنادية التى تستدعى معرفة (خارجية) برواة لا يشترط «الطبرى» صدقهم ودقتهم؛ فيما تصبح الصيغ: (حدثنى، حدثنا، كتب) — المندمجة مع (قال) و(عن) داخل سياق — فاقدة لكثير من دلالتها المرتبطة بالنقل المباشر (سماً أو كتابة)، حتى فيما يتعلق بما يسنده «الطبرى» إلى نفسه: (كتب إلى السرى... — ص. ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٦)، حيث لا يقطع الفعل (كتب) صلته بالإسناد الشفوى (... عن ... عن ... قالوا/ قال: )، وكذلك الحال مع الفعل (حدثنى) — ص. ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٨)، مما لا يبتعد به كثيراً عن صيغ نقل الأقوال السابقة، أو عن صيغ أخرى عامة غير محددة مثل: («ذكر محمد بن عمر أن عبد الله بن جعفر حدثه عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة، عن أبيها، قال: ... — ص. ٦٦١)، أو عن الادعاء بوجود سند دون ذكره أو تسميته: («وأما غير سيف، فإن منهم من قال: ... — ص. ٦٥٥. «وأما سيف، فإنه قال — فيما كتب إلى السرى، عن شعيب، عنه: ذكر عن بدر بن عثمان، عن عمه، قال: ...، ...، ... — ص. ٦٧٢)، («كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن بدر بن الخليل بن عثمان بن قطبة الأسدى، عن رجل من بنى أسد قال: ... — ص. ٦٤٩)، مطمئناً — فى النص الأخير — إلى أن ذلك الرجل غير المسمى: (رجل من بنى أسد) من قبيلة «بدر بن عثمان الأسدى» الذى أخذ عنه. وهكذا ينفصل الإسناد لدى «الطبرى» — باختلاله وانقطاعه — عن وظيفته الأساسية فى إثبات الصلة بين الخبر/ القول ومصدره أو أصله، وإقصاء أى دور تأليفى للوسطاء (أى السلسلة الإسنادية)، بمن فيهم «الطبرى» نفسه، ليصبح (أى الإسناد) مجرد إيهام بهذه الصلة وهذا الإقصاء، ولا يقف دليلاً على كل من الصلة والإقصاء تجسد أصل الخبر كشخصية داخل المروى، وتحوله إلى سارد من الدرجة الثانية، داخل الحكاية/ الخبر، يروى مشاهداته، وإدراكاته (وربما أفعاله): («أبوحيبة» — ص. ٦٦١، ٦٦٨، «عبدالرحمن من خاطب» — ص. ٦٦١، ٦٦٢، «وثاب» — ص. ٦٦٤، «محمد بن مسلمة» — ص. ٦٦٥، «عبدالرحمن بن أبزى»، ص. ٦٦٩، «أبو حفصة» — ص. ٦٦٩، «أبو بكر بن الحارث بن هشام» — ص. ٦٧٠، «المغيرة بن شعبة» — ص. ٦٧٦، «موسى بن طلحة» — ص.

٦٧٧). هذا الوجود المشخص لأصل الخبر (ولمفوضه) إنما قدم عبر وساطة تحول فيها المسموع إلى مقول، والمتلقى إلى باث، ولم يتوخ فيها الاتصال والتثبت؛ هذا الفعل (أى الإسناد وما يتصل به من تشخيص) يغدو إيهاماً بالصلة والإقصاء، مؤكداً - فى المقابل - تورطاً لـ «الطبرى» مع مروياته، بوصفه مؤلفاً، سارداً **narrator**، منشئاً أكثر منه راوياً (للأخبار) **teller**، لا يقصد إلى الوصول إلى أصل الخبر/ القول، ولا إلى صحة النقل، ومن ثم صحة المروى، بل تنصرف عنايته إلى القول، إلى الخبر بوصفه قولاً أو خطاباً لا محتوى، أو بعبارة أخرى: إلى بيان "... أن المتن قد قيل بوصفه خطاباً، لا أنه وقع بوصفه خبراً..."<sup>(٣٦)</sup>، على نحو تتعاضم معه أهمية صياغة القول/ الخبر وطرق تقديمه، فى ظل هيمنة واضحة للأقوال على الأحداث والأفعال داخل الخبر - كما سيظهر لاحقاً.

### (٣)

يغدو السند استراتيجياً نصية يتسلل خلالها السارد/ «الطبرى»، بما يمارسه (أى السند) من إيهام، وبما يحققه من تأمين للانتقال بين الأقوال والروايات، دونما قيود أو روابط زمنية أو منطقية واضحة، بحيث تنهض الأسانيد حدوداً وفواصل بين وحدات الخبر ومتتالياته، تضمن لكل منها استقلاله من ناحية، وترشحه - من ناحية أخرى - لعلاقة ما بغيره. وانطلاقاً من هذا التقطيع **segmentation** الجاهز الذى توفره الأسانيد، يمكن النظر إلى خبر القتل على أنه مؤلف من عدد من الوحدات **units** السردية، باعتبار الراوى المباشر الذى يأخذ عنه «الطبرى»، (وهو اقتراح يستند إلى المعطى الخطابى لا المعطى التاريخى، بمعنى أن بعض صيغ الخطاب الإسنادى الافتتاحية - مقارنة بنظائرها - قد تسند القول إلى شخص ما - وليكن مثلاً «أحمد بن إبراهيم» ص. ٦٦٢ - بوصفه أحد رواة «الطبرى» المباشرين، فى حين أنه قد لا يكون كذلك تاريخياً، فقد يتوسط بينهما آخر، ذلك الذى سبقت رواياته، أى «محمد بن الواقدي» هنا). وهذه الوحدات هى:

- ١- محمد بن عمر الواقدي (ص ص. ٦٦١، ٦٦٢).
- ٢- أحمد بن إبراهيم (ص. ٦٦٢).
- ٣- جعفر بن عبدالله المحمدي (ص ص. ٦٦٢ - ٦٦٤).
- ٤- يعقوب بن إبراهيم (ص ص. ٦٦٤، ٦٦٥).
- ٥- محمد بن عمر الواقدي (ص ص. ٦٦٥ - ٦٧٠).
- ٦- أحمد بن عثمان بن حكيم (ص. ٦٧٠).
- ٧- جعفر بن عبدالله المحمدي (ص ص. ٦٧٠، ٦٧١).
- ٨- يعقوب بن إبراهيم (ص ص. ٦٧١، ٦٧٢).
- ٩- السرى (ص ص. ٦٧٢ - ٦٧٧).
- ١٠- محمد بن عمرو الواقدي (ص ص. ٦٧٧، ٦٧٨).
- ١١- عبدالله بن أحمد المرورى (ص. ٦٧٨).
- ١٢- محمد بن عمر الواقدي (ص ص. ٦٧٨، ٦٧٩).

هذه الوحدات البالغة اثنتى عشرة تتفاوت طولاً وقصراً (ما بين صفحة واحدة وخمس صفحات)، وتشهد توزيعاً غير منظم وتفتيتاً لمرويات الراوى الواحد: «محمد بن عمر الواقدي» (١، ٥، ١٠، ١٢)، «جعفر المحمدي» (٣، ٧) «يعقوب بن إبراهيم» (٤، ٨) كما أن متتاليات sequences الوحدة السردية الواحدة تشهد هي الأخرى قدراً من التفتيت لا يصاحبه - دائماً - اختلاف السند، مما يجعل منه إجراء شكلياً مقصوداً يتصنع السند ويختلفه، والمقصود بـ «المتتالية» - هنا - التتابع الذى يمكن رصده لعدد من العناصر (اللغوية)، بمقتضى ما بينها من علاقات أو فواصل وحدود<sup>(٣٧)</sup>. ويمثل السند - فى المتن المدروس - حدوداً للمتتاليات، كما فى الوحدة التاسعة - على سبيل المثال - المكونة من سبع متتاليات، وهى:

أ- «وأما سيف، فإنه قال - فيما كتب إلى السرى، عن شعيب، عنه: ذكر عن بدر بن عثمان، عن عمه، قال: .....» (ص. ٦٧٢)؛

ب- «كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبى حارثة وأبى عثمان، قالوا: ...» (ص. ٦٧٢).

ج- «كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن أبى حارثة وأبى عثمان ومحمد وطلحة، قالوا: ...» (ص. ٦٧٢، ٦٧٣).

د- «وكتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بين محمد، قال: ...» (ص. ٦٧٣).

هـ- «كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبى حارثة وأبى عثمان، قالوا: ...» (ص. ٦٧٣، ٦٧٤).

و- «كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبى حارثة وأبى عثمان، قالوا: ...» (ص. ٦٧٤ - ٦٧٦).

ز- «كتب إلى السرى، عن شعيب، عن سيف، عن المجالد، عن الشعبي، عن المغيرة بن شعبة، قلت لعلى: ...» (ص. ٦٧٦، ٦٧٧).

فى هذه الوحدة تتتابع المتتاليات (ب، ج)، والمتتاليات (هـ، و)، دون اختلاف فى السلسلة الإسنادية، باستثناء ترتيب الجزء الأخير من السلسلة فى الثنائية الأولى: (محمد وطلحة وأبى حارثة وأبى عثمان ← أبى حارثة وأبى عثمان ومحمد وطلحة). فى هاتين الثنائيتين يغدو بناء متتالية جديدة أو افتتاحها، من غير اختلاف دال فى السند - ضرباً من «العيب» أو التلاعب بالسند ووظيفته من ناحية، وبالرواية وتقطيعها وتفتيتها من ناحية أخرى.

\*

تتمتع كل من المتتالية والوحدة السردية - عبر السند - بحدود شكلية تحقق لها استقلالاً وانغلاقاً، كما تمنحها قدراً من الانسجام، غير أنها لا تحول - فى الوقت نفسه - دون انفتاحها على غيرها من المتتاليات والوحدات، بل لا تمنع من وقوع كثير من التداخل، التكرار، التعدد، التضارب. هذه الوضعية المخصوصة، المستقلة والمتداخلة، ليست سوى نتاج للاثهامم بالأفعال أكثر من الشخصيات،

الأفعال التي تبقى ثابتة ومستمرة، وتتحكم في بناء المتتاليات والوحدات السردية وتطورها، تلك التي أطلق عليها «بروب» مصطلح «الوظائف» functions، مهما تكن الشخصيات، ومهما تكن طريقة إنجازها لهذه الوظائف<sup>(٣٨)</sup>. وهو ما يفسر عدم الانزعاج إزاء نسبة الفعل الواحد أو القول الواحد إلى عدد من الشخصيات، فيما بين متتاليات الوحدة، أو بين الوحدات بعضها البعض، — كما سيظهر لاحقاً. يسبق الوحدات الاثنتي عشرة المكونة لخبر القتل وعقب العنوان مباشرة: («ذكر الخبر عن قتله وكيف قتل» — ص. ٦٦١)، قول لـ «الطبري» مقدم بوساطة سارد غير مسمى، عبر العبارة الاستهلاكية: («قال أبو جعفر رحمه الله: ...» — ص. ٦٦١). هذه العبارة — التي يلتقى بها القارئ منذ المقدمة<sup>(٣٩)</sup> — يمكن أن تحيل إلى الناسخ (أو من أملى عليه الكتاب)، ولكن اختفاءها أو ما شابهها في غير هذا الموضع (من التاريخ لسنة ٣٥) ومع غيره من العناوين حيث لا ضرورة لذكرها ولا التباس من إسقاطها؛ وارتباطهما بظهور فريد لـ «الطبري» كوعى مشخص، عبر ضمير المتكلم، واتخاذ موقف بالإعراض عن ذكر كثير من الأسباب التي أعلنها قاتلو «عثمان» دافعاً لقتله: («قال أبو جعفر رحمه الله: قد ذكرنا كثيراً من الأسباب التي ذكر قاتلوه أنهم جعلوها ذريعة إلى قتله، فأعرضنا عن ذكر كثير منها لعل دعت إلى الإعراض عنها» — ص. ٦٦١). العبارة — بهذه الوضعية — تسعى إلى التخفيف من حضور «الطبري» كمؤلف، بإنزاله منزلة الرواة. غير أن قول «الطبري» ذاته يكشف عن دور تأليفي واضح. فبعد ذكره لبعض دواعي القتل، يعرض للقتل ذاته: كيفيته وما ارتبط بذلك من الجراءة على «عثمان» قبل قتله، وإن كان هذا لن يخلو — بالضرورة — من العودة إلى حديث دواعي القتل وأسبابه: («تذكر الآن كيف قتل، وما كان بدء ذلك وافتتاحه، ومن كان المبتدئ به والمفتتح للجرأة عليه قبل قتله» — ص. ٦٦١). ومن شأن هذا القول أن يحقق وحدة لوحدة الخبر وانسجاماً بينها، مهدت لهما عنونة الخبر: («ذكر الخبر عن قتله وكيف قتل») بطريقة تنبئ عما ستشاهده المتتاليات والوحدات من تأليف تجميعي (يتم بفضل عودات متكررة — عبر تعدد الأسانيد — انطلاقاً من «الآن»، أي حاضر تلفظ «الطبري»: «تذكر الآن»)، تأليف تجميعي أكثر منه متابعة مستمرة لتطورات متلاحقة — خلافاً لجوهر عمل المؤرخ<sup>(٤٠)</sup>.

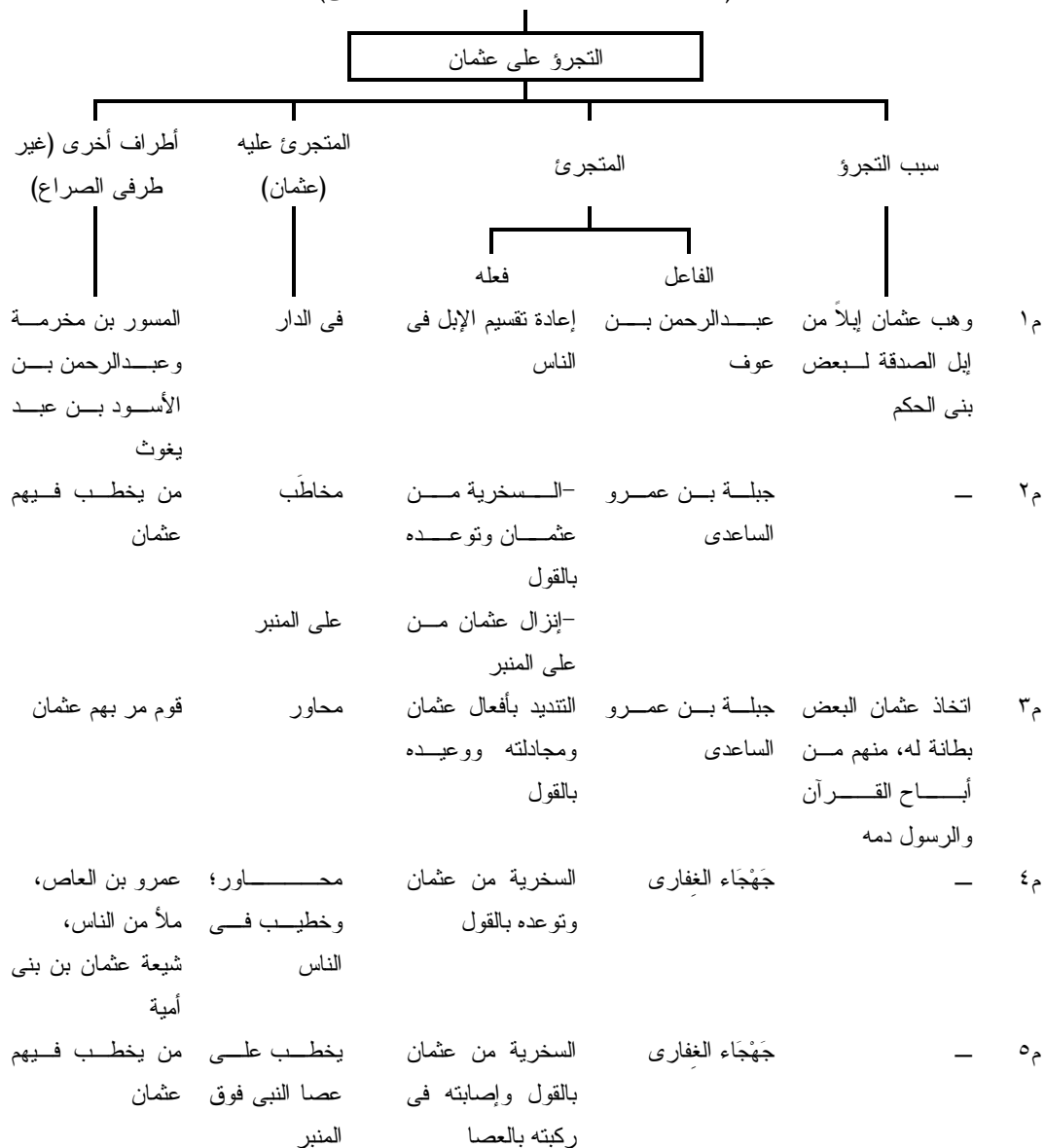
#### (٤)

تحقق للوحدة السردية الأولى (ص ص. ٦٦١، ٦٦٢: «محمد بن عمر الواقدي» — الرواية الأولى) بنية منسجمة، من خلال تتابع خمس متتاليات يؤلف بينهما فعل «التجرؤ» على عثمان، وبالتحديد بدء هذا الفعل بوصفه مفتتحاً لقتله (وهو ما تضمنه قول «الطبري» السابق: «وتذكر الآن كيف قتل، وما كان بدء ذلك وافتتاحه، ومن كان المبتدئ به، والمفتتح للجرأة عليه قبل قتله»). يتكرر الفعل (أي التجرؤ) دون أن يشهد تطوراً خطياً متواصلاً بتوالي المتتاليات متخذاً أشكالاً تتشابه أو تتنوع، مع تغير الفاعل من متتالية لأخرى، مظهراً في جميعها رفضاً لعثمان، تتعدد أسبابه، فترجعها بعض المتتاليات إلى سياسة عثمان، بينما تعتمد جميع متتاليات هذه الوحدة إلى تغييب عثمان أو تهميشه (على مستوى الخطاب)، في إشارة إلى أن ضعف عثمان، الذي يلقي بآثاره على سياسته بالضرورة — هو ما دفع إلى التجرؤ عليه — لم تنصرف المتتاليات إلى حال المتجرئ ووضعيته (سابقاً)، وإنما اتجهت لترصد تحولاً في العلاقة

(المفترضة) مع الخليفة/ عثمان، حيث أخذت هذه العلاقة شكل انفصال أو انقطاع يكاد يكون تاماً، تجسد بأوضح صورته في العلاقة التخاطبية بين الطرفين (بانهايارها أو ضعفها كما أن الأطراف الأخرى) التي تستحضرها المتتاليات) لا تنهض بدور حاسم في تعديل العلاقة وإنهاء الصراع، بل تكتفى بمجرد الحضور، أو الميل لعثمان غير المؤثر أو الفعال، أو العمل في الاتجاه المعارض له. لا تعتنى المتتاليات بحال المتجرى، مكثفة بالإشارة إلى أن ما أهل المتجرى لهذا الدور (السردى) هو ضعف عثمان وسياسته غير المتوازنة، لا شئ آخر يعود إلى وضعية المتجرى وشخصه. ويمكن تشخيص التركيب الداخلى للمتتالية، ثم علاقتها بغيره من متتاليات الوحدة، من خلال الخطاطة التالية (القابلة لقراءتين أفقية ورأسية).

#### الوحدة الأولى (٥ متتاليات)

(محمد بن عمر الواقدي - الرواية الأولى)



تقوم كل متتالية على فعل «التجرؤ» الناتج أو المتحول عن «إساءة» عثمان تصريحاً (١، ٣) أو ضمناً (٢، ٤، ٥ – بتأويل العلامات المرتبطة بعثمان حال التجرؤ عليه)، وهو ما يجعل من الانفصال أو التقابل بنية للمتتالية (عثمان # المتجرئ عليه). ويكون تتابع المتتاليات بتكرير البنية ذاتها، مع تردد لعدد من المتشابهات التي تزيد من الانسجام بين المتتاليات، متجاوزة ما بينها من اختلافات، كذلك التي تخص الفاعل/ العامل، أو صيغة الفعل (ملفوظاً أو مروياً)، أو غيبة بعض التفاصيل أو إجمالها. ومن هذه المتشابهات:

أ-الجامعة، أى ما يوضع فى العنق (عند التعذيب مثلاً)، أو ما يشد به العنق واليد:

(مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدى، وهو بفناء داره، ومعه جامعة» – م٢).

(.. فى يد جبلة بن عمرو جامعة .. قال جبلة: .. والله لأطرحن هذه الجامعة فى عنقك» –

م٣).

(«.. فقام إليه جهجاء الغفارى، فصاح: يا عثمان .. ولنطرحك فى الجامعة – م٤).

ب-إيل/ قلوص/ شارف:

(«قدمت إيل من إيل الصدقة على عثمان، فبلغ ذلك عبدالرحمن بن عوف...» – م١).

(مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدى ... فقال: .. لأحملنك على قلوص جرباء» – م٢).

(«.. قام إليه جهجاء الغفارى، فصاح: يا عثمان، ألا إن هذه شارف قد جننا بها... لنحملك على

الشارف» – م٤).

ج-إنزال عثمان من على المنبر:

(«... ثم جاءه [أى جبلة بن عمرو] مرة أخرى وعثمان على المنبر، فأنزله عنه» – م٢).

(«... خطب [أى عثمان] الناس، فقام إليه جهجاء الغفارى، فصاح: يا عثمان ... انزل» – م٤).

(«أنظر [أى عبدالرحمن بن خاطب] إلى عثمان يخطب على عصا النبي (ع) التي كان يخطب

عليها وأبوبكر وعمر (رضى الله عنهما)، فقال له جهجاء: ثم يا نعتل، فأنزل عن هذا المنبر»

– م٥).

د-وجود آخرين أو جمع من الناس (غير طرفى الصراع الرئيسيين: عثمان والمتجرئ عليه)، لا يتجهون

إلى إنهاء حقيقى للصراع/ الانفصال. فقط هم شهود/ حضور، أو معاونون لعثمان على نحو غير إيجابى

كثيراً، أو معارضون له (بمساعدة المتجرئ):

(«... أرسل [أى عبدالرحمن بن عوف] إلى المسور بن مخرمة وإلى عبدالرحمن بن الأسود

بن عبد يغوث، فأخذاها [أى أبل الصدقة التي وهبها عثمان لبعض بنى الحكم]، فقسماها

عبدالرحمن فى الناس» – م١).

(«... ثم جاءه [أى جبلة بن عمرو] مرة أخرى وعثمان على المنبر، فأنزله عنه» – م٢).

(«... مر به [أى بجبلة بن عمرو] عثمان وهو فى ندى قومه ... فلما مر عثمان سلم، فرد

القوم...» – م٣).

«خطب عثمان الناس في بعض أيامه فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إنك قد ركبت نهابير وركبناها معك، فتب نتب ... فقام إليه جهجاء الغفاري ولم يكن ذلك منه إلا عن ملأ من الناس. وقام إلى عثمان خيرته وشيعته من بنى أمية فحملوه . فادخلوه الدار» - م ٤).

«.. عثمان يخطب ... فنزل عثمان وحملوه، وأمر بالعصا فشدوها» - م ٥).

هـ- صيغ خطابية (تعكس تطوُّلاً وجرأة وثقة من قبل المتكلم/ المتجرئ):

- مخاطبة عثمان بـ «نعثل» أي الشيخ الأحق ( «يا نعثل» - م ٢ «قم يا نعثل» - م ٥).

- صيغ القسم والتوكيد:

«... فقال [أي جبلة بن عمرو]، يا نعثل، والله لأقتلك، ولأحملنك على قلوب جرياء، ولأخرجنك إلى حرة الدار» - م ٢).

«.. فقال [أي جبلة بن عمرو]، والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه» - م ٣).

«... فصاح [أي جهجاء الغفاري]: يا عثمان، ألا إن هذه شارف قد جننا بها، عليها عباءة وجامعة، فانزل، فنندرك العباءة، ولنطرحك في الجامعة، ولنحملك على الشارف، ثم نطرحك في جبل الدخان» - م ٤).

و- سلبية عثمان المتجلية في:

- صمته وغياب رد فعله إزاء مسلك المتجرئ عليه، كما حدث عند إعادة تقسيم عبدالرحمن بن عوف إيل للصدقة و«عثمان في الدار» - م ١)، وعند إنزال جبلة بن عمرو لعثمان من على المنبر (م ٢)، وعند أخذ جهجاء الغفاري عصا النبي (ع) من يد عثمان، وكسرها على ركبته اليمنى وإصابته فيها (م ٥)، وعند مخاطبته بالمنطق أو القول السيئ (م ٢، ٣، ٤، ٥).

- ضعف حجته، وضعف قدرته على مواصلة الحوار أو الجدل مع الآخر

«... أقبل [أي جبلة بن عمرو] على عثمان، فقال: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه. قال عثمان: أي بطانة، فوالله إني لأتخير الناس، فقال: مروان تخيرته! ومعاوية تخيرته! وعبدالله بن عامر بن كُريز تخيرته! وعبدالله بن سعيد تخيرته! منهم من نزل القرآن بدمه، وأباح رسول الله (ع) دمه. قال [أي محمد بن عمر الواقدي]: فانصرف عثمان» - م ٣).

«... فصاح [أي جهجاء الغفاري]: يا عثمان، ألا إن هذه شارف قد جننا بها. عليها عباءة وجامعة ... فقال عثمان: قبحك الله وقبح ما جئت به!» - م ٤).

هذه المتشابهات الممتدة عبر المتتاليات، والتي تعد تجليات لبنية الانفصال أو الانقطاع أو التقابل، تنطق بالترار والتداخل والتناقض. وما يرافقه من اختلافات وتوزيعات لا يطرح منطقاً آخر كالتتابع الكرونولوجي، وإن تظاهرت بعض الاختلافات - بجذتها، أو بالتوسع في التفاصيل، أو باختزالها للزمن - على الإحياء بالتطور أو التتابع الزمني. فلم يكن انتهاء المتتالية الخامسة والأخيرة في هذه الوحدة الأولى بخبر الاعتداء على عثمان من قبل جهجاء الغفاري: («.. وأخذ [أي جهجاء] العصا،

فكسرها على ركبته اليمنى، فدخلت شظية منها فيها، فبقى الجرح حتى أصابته الأكلة، فرأيتها تدود، فنزل عثمان، وحملوه، وأمر بالعصا فشدوها، فكانت مضربة، فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خرقة أو خرجتين حتى حصر فقتل»؛ لم يكن الانتهاء بهذا الخبر، حتى وإن كان غير مسبوق (فى المتتاليات الأربعة الأولى) فيما يتعلق بإيذاء عثمان بصورة أكثر شدة وقسوة وعنفاً (صاحبها كسر عصا النبي (ع))؛ لم يكن الانتهاء بالخبر، والامتداد به حتى حصر عثمان وقتله (الحدث الختامى)، متابعة أو تطوراً زمنياً لمحتوى المتتاليات، بما يعنى فى النهاية انغلاقها. فمن المتتاليات الأربعة الأولى ما يتضمن علامات إشارية وزمنية صريحة أو ضمنية تقترب بها من زمن الحصر والقتل، وربما تتجاوزه، وهى علامات ترتبط بزمن التلفظ لا زمن الملفوظ (أى الخبر المروى). فالعلامة: (هذا اليوم) فى قول «عامر بن سعيد» بعد نقله لمحاورة «جبله بن عمرو» مع «عثمان»: («قال: فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم» - م ٣)؛ هذه العلامة تضع زمن التلفظ غير بعيد عن زمن الحصر والقتل. بينما تحمل العلامتان: (يومئذ، آخر ما رأيته) الواردتان فى قول «أبى حبيبة»: («..فاستقبل عثمان القبلة، وشهر يديه - قال أبو حبيبة: فلم أر يوماً أكثر باكياً ولا باكياً من يومئذ.. وقام إلى عثمان خيرته وشيعته من بنى أمية، فحملوه وأدخلوه الدار. قال أبو حبيبة: فكان آخر ما رأيته فيه» - م ٤)؛ تحتل العلامتان انتقالاً بزمن التلفظ إلى ما بعد زمن الحصر والقتل.

غير أن الوحدة السردية الثانية (أحمد بن إبراهيم - ص ٦٦٢) أكثر تصريحاً فى نقض فرضية التتابع الزمنى لخبر القتل (وهو ما يكون أكثر دلالة إن اعتبرت هذه الوحدة متتالية سادسة فى الوحدة الأولى أى باعتبار «أحمد بن إبراهيم» أحد رواة «محمد بن عمر»، وبتريدها لاسم ظهر فى متتاليتين سابقتين لها هو «جهجاء»). هذه الوحدة التى لا تحمل جديداً ولا اختلافاً بالنسبة لسوابقها، تقف عند حادث كسر «جهجاء الغفارى» للعصا على ركبة «عثمان»، بصورة أكثر إجمالاً وأقل تفصيلاً وأبعد محاكاة للخبر، ودون الامتداد إلى ذكر الحصر والقتل، على نحو ما جاء فى نهاية الوحدة الأولى: («حدثنى أحمد بن إبراهيم .. عن نافع، أن جهجاء الغفارى أخذ عصا كانت فى يد عثمان، فكسرها على ركبته، فرمى فى ذلك المكان بأكله»). هنا يأتى الخبر محكياً عن مصدره (أى «نافع»)، لا منقولاً بصوته (باستخدام الفعل: «قال»: )، كما اعتادت كل متتاليات الوحدة الأولى.

\*

وفى الوحدة الثالثة بمتتالياتها الثلاثة («جعفر بن عبدالله المحمدى» - الرؤية الأولى، ص ص. ٦٦٢ - ٦٦٤)، تواصل بنية الانفصال أو اللا - اندماج حضورها، ولكن على نحو أكثر تعقيداً وغنى وثراء، وذلك من خلال:

-تتويجات جديدة على أسباب الثورة والحصر والقتل، خاصة كتاب «عثمان» إلى أمير مصر بقتل ومعاقبة من قدم المدينة من المصريين ثائراً، بعد أن أعطاهم (أى «عثمان») عهداً بإجابتهم إلى مطلبهم، فكان الكتاب نكتاً بالعهد، بل غدراً.

-حركية العلاقة بين طرفى الصراع: عثمان ومن قدم المدينة من المصريين، ما بين قدوم وتراجع، وعهد ونقض. وهى حركية امتدت إلى الأطراف الأخرى التى استتجد بها «عثمان».

-تعدد الأطراف الأخرى المتضمنة في الخبر، والمتورطة فيه بعلاقاتها بطرفي الصراع أو بأحدهما: بعض صحابة النبي (ع) في المدينة والثغور، رسول «عثمان» إلى عامله على مصر: «أبو الأعور بن سفيان السلمى»، «معاوية بن أبي سفيان»، «يزيد بن أسد بن كرز»، «القسرى»، «عبدالله بن عامر»، «مجاشع بن مسعود السلمى»، «قيس بن الهيثم السلمى»، «مروان بن الحكم»، «على بن أبي طالب»، «عمرو بن حزم الأنصارى».

إن مظاهر الانفصال بتنوعها وحركيتها وتعددتها إنما ترصدها هذه الوحدة من نتيجته النهائية (أى قتل «عثمان»)، ومن ثم فهي لا تنظر إلى غير زمن الانفصال (إبرام اتفاق، عهد، رجوع الثوار) على أنه تقارب وتفاوض، بل فرصة للمناورة والخداع والترقب، لا تنبئ عما يعقبها من تزايد للخلاف والصراع، بقدر ما تكشف عن الإيديولوجيا المتحكمة في سلوك وأقوال كثير من الأطراف أو الشخصيات المتضمنة في الخبر، بمن فيهم مصدره (ومن ينقلون عنه بالتالى).

لم يعد «عثمان» - في هذه الوحدة الثالثة - يواجه فرداً (كما في الوجدتين السابقتين)، تقف الجماعة شاهدة أو معاونة من غير تأثير حقيقى - كما جاء سابقاً، بل غدا يلقى معارضة جماعية من قبل كيانات لا تتجاهل الوحدة وضعياتها - على نحو ما حدث مع المتجرى الفرد سابقاً، بل تقدمها مشاراً إليها - (صحابه رسول الله (ع)، أو التابعين)، سواء مع من كان بالمدينة أو فى الأفق، أو بعض الثوار المصريين. وهنا تعلن الوحدة أن بعض صحابة رسول الله (ع) والتابعين هم قتلة «عثمان» بالفعل: (لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب من بالمدينة من أصحاب النبي (ع) إلى من بالأفاق منهم - وكانوا قد تفرقوا فى الثغور: .. إن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك، فهلموا فأقيموا دين محمد (ع). فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه. وكتب عثمان إلى عبدالله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر.. بكتاب فى الذين شخصوا من مصر، وكانوا أشد أهل الأمصار عليه.. منهم نفر من أصحاب رسول الله (ع)، ومنهم قوم من التابعين .. وثار أهل المدينة» - م. ١، ص. ٦٦٢)، («.. وكان أهل مصر الذين ساروا إلى عثمان ستمائة رجل.. وكان جماع أمرهم جميعاً إلى عمرو بن بُذيل بن ورقاء الخزاعى - وكان من أصحاب النبي (ع)..» - م. ٣، ص. ٦٣٣). وإلى جانب هذا يسند لهؤلاء الصحابة دور غير مباشر، عندما حالت عدم الرغبة فى مخالفتهم، أو إظهارها، دون نصره «عثمان» من قبل شيعته، كما هو الحال مع «معاوية»، عندما بعث إليه «عثمان» كتاباً يستنصره: («فلما جاء معاوية الكتاب تربص به، وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله (ع)، وقد علم اجتماعهم، فلما أبطأ أمره على عثمان..» - ص. ٦٦٣). ولئن بدا ما قام به الصحابة من دور مباشر فى قتل «عثمان» عملاً دينياً: (فهلما فأقيموا دين الله، فأقبلوا) («وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة، ويحتجون، ويقسمون بالله لا يسكون عنه أبداً حتى يقتلوه، أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله» - م. ٣، ص. ٦٦٣)، فإن دورهم غير المباشر - بالنسبة لـ «معاوية» - ليس كذلك: (كره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله (ع)).

ويغدو فعل الكتابة - فى هذه الوحدة - حافظاً سردياً، يدفع إلى داخلها بعدد من الخطابات المكتوبة التى تترك تأثيراً واضحاً على أفعال الشخصيات وملفوظها يودى إلى تعميق الانفصال بينهما. فمن بالمدينة من أصحاب النبي (ع) يكتبون إلى من بالأفاق منهم، فيقبلون على المدينة؛ و«عثمان» يكتب

إلى عامله على مصر، فيرجع الثوار المصريون إلى المدينة؛ وهو - أيضاً - يكتب إلى «معاوية» لنصرته، فيتباطأ؛ كما يكتب «عثمان» إلى «يزيد بن أسد بن كرز» وإلى أهل الشام، وإلى «عبدالله بن عامر» وإلى أهل البصرة، وقبل أن يأتوا المدينة، يبلغهم مقتله؛ ويكتب أهل مصر - بالسُّقيا أو بذى خُشب - إلى «عثمان» فلا يرد ويخرج حامل كتابهم من داره؛ ويكتب أهل المدينة إلى «عثمان»؛ و«علي بن أبي طالب» يكتب كتاباً بين الثوار المصريين وبين «عثمان»، فلا يفى «عثمان»، ويتأهب للقتال. هذه الخطابات المكتوبة تتخلل سياق الخبر (في هذه الوحدة الثالثة) منها ما هو مروى من قبل السارد، مستخدماً ضمائر الغيبة، ضمائر الشخص الثالث: («كتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة، ويحتجون، ويقسمون له ..» - ص. ٦٦٣)، ومنها ما هو منقول بضمائر الحضور، ضمائر الشخص الأول والثاني، وهو ما يسمى في هذه الحالة «الميتا - سرد» meta-diegetic، أى إن من يتولى الحكاية أو السرد (في الخطاب المكتوب) هو سارد من الدرجة الثانية، يقع عند مستوى سردي داخلي intra-diegetic أدنى من المستوى السردي الذى تبدأ عنده حكاية الخبر (فيما بعد السند) بصوت مصدره. ومن شأن الميتا - سرد المكتوب أن يضيف على السرد (الابتدائي أو الأولي) الذى يدرج فيه الميتا - سرد - موضوعية وحياداً، بحيث يصبح الميتا - سرد المكتوب - هنا - بمثابة «وثيقة» تاريخية يدعى من خلالها الراوى صدقه، خاصة أن العلاقة بينهما (أى بين الميتا - سرد والسرد الابتدائي) تبدو كأنها علاقة مماثلة، علاقة موضوعاتية thematic - فيما يسمى بـ «الإرصاد mise en abyme»<sup>(٤١)</sup>، غير أن طريقة تقديم السارد - ومن قبل اختياره - للميتا - سرد أو الوثيقة، يفضح مدى التطرف أو المبالغة فى إقامة مثل هذه العلاقة من المماثلة، على نحو يضعف كثيراً من مصداقيتها.

يُندرج الميتا - سرد المكتوب فى هذه الوحدة - وفى غيرها من وحدات الخبر - ضمن ملفوظات أو أقوال منقولة: (.. قال: ..). فالمكتوب دخل الحكاية/ الخبر عن طريق السماع والتناقل الشفوى. وهو (أى المكتوب) إذ صار مسموعاً، سيكون عرضةً للتحريف والاختزال، ومن ثم للتوجيه (الأيديولوجي)، لاسيما عند طوله، وفى ظل اختلال سلسلة إسناده.

ويتميز الحديث عن كتاب «عثمان» إلى عامله على مصر عن غيره من الخطابات المكتوبة فى هذه الوحدة - بتكرره، فيجئ عدة مرات، فى الأولى يرد منقولاً، بينما يحكيه السارد عبر ضمائر الغيبة فى المرات الأخرى كما فى قوله: («.. أدركهم غلام لعثمان على جمل له بصحيفة إلى أمير مصر أن يقتل بعضهم، وأن يصلب بعضهم» - ص. ٦٦٢). هذا الحديث المتكرر المتنوع - والذى سيعاود الظهور فى وحدات تالية - يمنح الكتاب بوصفه ملفوظاً أو خبراً واحداً - وهو ما يحدث لكثير من المتكررات فى خبر القتل - وجوداً متعددًا تكرارياً، عابثاً بخطية المسار الزمنى المتواصل وأحاديته، ومناهضاً لأحادية الدلالة، بقابليته لآثار الأيديولوجيا فى السياقات (أو أنحاء الوجود) المختلفة، حتى ليبدو الأمر غير متعلق .. بذات الحدث الخطابي، واعتباره حدثاً تردد عدة مرات فى الزمن..<sup>(٤٢)</sup>، خاصة مع ما يصاحب التكرار من اختلافات وتنويعات، ومع عدم اكتراث خبر القتل بمنطق التتابع الزمنى.

يرد كتاب «عثمان» في المرة الأولى في صورة خطاب منقول، ولكن بطريقة مغايرة لكتب أخرى جاءت في الوحدة ذاتها بصيغة الخطاب المباشر المنقول، وهي: كتاب من بالمدينة من أصحاب النبي (ع) إلى من بالآفاق منهم، كتاب «عثمان» إلى «معاوية بن أبي سفيان»، وكتاب أهل مصر بالسقيا أو بذي خشب إلى «عثمان». فلا أثر في هذه الكتب/الخطابات لتدخل السارد، فكتاب «عثمان» إلى «معاوية» جاء على هذا النحو: («.. بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول» - ص. ٦٦٢)، حيث يكتفى - السارد - هنا - بدور الناقل (في ظل ما يرتبط بتحويل المكتوب إلى مسموع من اعتبارات سبقت الإشارة إلى بعضها). يُظهر السارد حياداً إزاء الخطاب المكتوب، محافظاً على صيغته المباشرة، ولكنه - في المقابل قد يتجه - إلى تطويقه بأخبار وتقييمات ذاتية (ليست من قبيل المعطى التاريخي) تنصرف بالخطاب المباشر المنقول إلى مسالك تأويلية محددة وموجهة. ف «عثمان» لم يكتب الكتاب إلا خوفاً: («فلما رأى عثمان ما قد نزل به، وما قد انبعث عليه من الناس، كتب إلى معاوية..» - ص. ٦٦٢)، و«معاوية» لم يتباطأ إلا طمعاً، أو على الأقل ترقباً وانتظاراً لأمر ما ليس بديني كما سبق القول: («فلما جاء معاوية الكتاب تربص به، وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله (ع)، وقد علم اجتماعهم، فلما أبطأ أمره على عثمان..» - ص. ٦٦٣). أما كتاب «عثمان»، فيأخذ - في الظاهر - صورة الخطاب المنقول، كما تتجلى في صيغ المخاطب (أي ضمائر الشخص الثاني): («..: أما بعد، فانظر فلاناً وفلاناً، فاضرب أعناقهم إذا قدموا عليك؛ فانظر فلاناً وفلاناً، فعاقبهم بكذا وكذا» - ص. ٦٦٢)، غير أن الكتاب لا ينجو من تدخل «سافر» للسارد في منطوقه، باختزاله إلى أقصى حد ممكن، عبر عبارات: (فلاناً وفلاناً، كذا وكذا)، على نحو لا يعد إغراضاً عن ذكر تفاصيل الكتاب أو محتواه، فالسارد سيرويه - فيما بعد - بتقة بالغة؛ ولكنه قد يخفي جهلاً بالنص أو المنطوق أو تحاشياً له - والذي سيغدو مروياً، ولن يكون منقولاً بعد هذه المرة - وإن تظاهر بغير هذا عن طريق الاحتفاظ ببعض صيغ الخطاب المباشر، مما يرجح أن هذا الاختيار وليد رغبة السارد في التسلل إلى منطوق الشخصية. وهو ما يظهر - أيضاً - في السياق نفسه - عندما التقى من كان عائداً إلى مصر بمن يحمل كتاب «عثمان»: («.. فسألوه: أين يريدي؟» - ص. ٦٦٢)، حيث الجمع بين صيغة الغياب: (يريد)، وإحدى علامات الخطاب المباشر: (؟) - إلى جانب سؤال استباقي لا يمكن أن يصدر إلا عن من يملك معرفة بمستقبل الحدث/ الخبر («هل معك كتاب؟»). مثل هذا الخطاب يسمى «الخطاب غير المباشر الحر» free indirect discourse<sup>(٤٣)</sup> الذي يكشف عن تدخل السارد يباعد بين المتلقى وكلمات الشخصية، محتفظاً ببعض سمات تلفظ الشخصية في خطابها المباشر. والسارد - في ذلك - تتنازعها رغبتان: الأولى الإيهام بصدقه في نقل ملفوظ الشخصية، والثانية التمسك بحضور ما عبر التسلل إلى الملفوظ، قد يتمكن من خلاله (أي الحضور أو التسلل) من بث أيديولوجيته بطريقة أكثر خفاءً ومكرًا، كما في: («.. كتب [أي عثمان] إلى يزيد بن أسد بن كرز، وإلى أهل الشام يستنفرهم، ويعظم حقه عليهم، ويذكر الخلفاء وما أمر الله عز وجل؛ من طاعتهم ومناصحتهم. ووعدهم أن ينجدهم جنداً أو بطانة دون الناس، وذكرهم بلاهه عندهم، وصنيعه إليهم؛ فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل، فإن القوم معا جلي»

— ص. ٦٦٣) فملفوظ «عثمان»، أى كتابه، إلى أهل الشام، يحكيه السارد بضمير الغائب: (بستفترهم، ويعظم حقه عليهم... الخ)، محتفظاً ببعض صيغ الخطاب المباشر وأساليبه: (عندكم، العجل العجل)، غير أنه فى حكايته لمنطوق الكتاب، يفضح بطريقة غير مباشرة سياسة المحاباة التى انتقد «عثمان» من أجلها، وكانت سبباً لحصره وقتله: (يعظم حقه عليهم، وعدهم أن ينجدهم جنداً وبطانة دون الناس، ذكرهم بلاده عندهم، وصنيعه إليهم)، بل إن السارد يقدم الأمر على نحو يبدو وكأن «عثمان» يفضح نفسه بقوله/ كتابه، حيث لا يأتى به السارد مروياً فقط، بل ملفوظاً أيضاً. وإلى جانب هذا الشكل من حضور السارد، هناك أشكال أخرى من الحضور أقل تستراً، عند تحويل الملفوظ إلى سرد، أو عند إحاطته بتأكيدات أو إيضاحات لا تخفى قصداً، والتفاتاً إلى متلق ما ضمنى، عبر جمل اعتراضية غالباً، مستفيدة من تميزها (أى الجمل الاعتراضية) بحارجيتها، أى استقلالها التركيبى والتغيمى والإنجازى<sup>(٤٤)</sup>: («.. وكتب عثمان إلى عبدالله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر — حين تراجع الناس عنه، وزعم أنه تائب — بكتاب فى الذين شخصوا من مصر، وكانوا أشد أهل الأمصار عليه: أما بعد: .. — منهم نفر من أصحاب رسول الله (ع)، ومنهم قوم من التابعين — فكان رسوله ..»). فى كلا الإيضاحين المقدمين عبر الجملتين الاعتراضيتين: ( — حين تراجع الناس عنه، وزعم أنه تائب — / — منهم نفر من أصحاب رسول الله (ع)، ومنهم قوم من التابعين —)، بما فيهما من تعريض: (زعم أنه تائب)، وتلميح: (أصحاب رسول الله (ع)، التابعين)؛ فى كلا الإيضاحين يخالل القارئ صوت آخر، دخيل واجنبى ومغاير لصوت السارد (فبعض هذه العبارات سترد بصوت أهل مصر فى حديثهم إلى عثمان: «ألم نفارقك على أنك زعمت أنك تائب من إحدائك ..» — ص. ٦٦٤)، وإن كان متضامناً معه، لكنه أكثر سخريّة وتعريضاً. وعلى هذا لن يغدو السرد محايداً، بمنأى عن أيديولوجيا السارد، تلك التى ستجد طريقها إلى كثير من صيغ الخطاب، بما فى ذلك تلك التى لا تتمتع بهيئة تركيبية مخصوصة (كالجمل الاعتراضية)، على نحو ما جاء سابقاً عند التعرض لبعض تقييمات السارد الذاتية التى لا يقابلها واقع تاريخى، وكما يظهر فيما يقدمه من تقرير يبدو وكأنه سرد خالص محايد، ولكنه — فى داخله — يمتلك ثقة أو يقينا بنسبة الكتاب إلى «عثمان»: («.. كتب عثمان .. فكان رسوله فى ذلك أبو الأعور بن سفيان السلمى، حملة عثمان على جمل له، ثم أمره أن يقبل حتى يدخل مصر قبل أن يدخلها القوم .. فلما رآه على جمل عثمان .. — م. ١، « .. أدركهم غلام لعثمان على جمل له بصحيفة إلى أمير مصر ..» — م. ٢، ص. ٦٦٢) .. وإزاء هذه المعرفة اليقينية بكتاب «عثمان» وغلामه وجمله، تلك المعرفة التى يشارك فيها السارد أحد طرفى الصراع (أى أهل مصر) — أو ربما استمدها منه — دون الآخر المنكر لها (أى «عثمان»)؛ إزاء هذه المعرفة اليقينية، سيكون إنكار «عثمان» مضاعفة للأبعاد السلبية فى شخصيته، حيث يغدو شخصياً غير مسؤول وغير مؤهل، يتصل مما يفعل، ومما يقول بنكته المتكرر لوعوده وعهوده، وهنا سيصبح إنكاره عبثاً، وحججه واهية. مما يترتب عليه ضعف قدرته التواصلية التخاطبية — كما ظهر سابقاً فى الوحدة الأولى — من ناحية، وإفساح المجال أم الآخر — من ناحية أخرى — لإظهار تفوقه على مستوى الخطاب عبر صيغ قسم وشرط (وانطلاقاً أيضاً من عدم أهلية «عثمان»): («.. أدركهم غلام لعثمان على جمل له بصحيفة .. فلما أتوا عثمان قالوا: هذا غلامك، قال: غلامى انطلق بغير علمى،

قالوا: جملك، قال: أخذه من الدار بغير أمرى، قلت خاتمك، قال: نقش عليه..» (ص. ٦٦٢)، «..»  
قالوا: فما هذا الكتاب الذى وجدناه مع رسولك وكتبت به إلى عاملك؟ قال: ما فعلت ولا علم لى بما  
تقولون، قالوا: بريدك على جملك، وكتاب كاتبك عليه خاتمك؛ قال: أما الجمل فمسروق، وقد يشبه الخط  
الخط، وأما الخاتم فانتقش عليه، قالوا: فإننا لا نعجل عليك، وإن كنا قد اتهمناك، اعزك عنا عمالك  
الفساق، واستعمل علينا من لا يتهم على دماننا وأموالنا، واردد علينا مظلماً، قال عثمان: ما أرانى إذا  
فى شئ إن كنت استعمل من هويتى، وأعزل من كرهتم، الأمر إذا أمركم! قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو  
لتقتلن؛ فانظر لنفسك أودع. فأبى عثمان وقال: لم أكن لأخلع سربالاً سربلينة الله..» (ص. ٦٦٤). إن  
الحوار — هنا — يشهد على ضعف العلاقة التواصلية التخاطبية، فلا يقود إلى شئ سوى تعميق  
الانفصال والتعارض، فى ظل عدم اكتراث الواحد منهما بحجج الآخر أو مبرراته وتجاهلها، فحجج  
«عثمان» فى نفي نسبة الكتاب إليه: (بغير علمى، بغير أمرى، نقش عليه)؛ وفى رفضه عزل نفسه إن لم  
يجب المصريين إلى مطالبهم: (لم أكن لأخلع سربالاً سربلينة الله)، وكذلك تبرير المصريين لمطالبهم  
بفساد عمال «عثمان» أو فسقهم؛ هذه الحجج تلقى صمتاً، إذ ينقطع الحوار دون التعليق عليها، أو قد تلقى  
تجاوزاً (لا يعنى تصديقها والافتناع بها) بالاندفاع نحو الإعلان عن المطالب والرغبات الخاصة، صدقت  
الحجج أم كذبت. فالمصريون يتجاوزون منطق «عثمان»: (الجمل مسروق، قد يشبه الخط الخط، الخاتم  
انتقش عليه) إلى مطالبهم: (إن كنا قد اتهمناك، اعزل عمالك)؛ كما يتجاوزونه مرة أخرى: (ما أرانى إذا  
فى شئ، إن كنت أستعمل من هويتى، وأعزل من كرهتم. الأمر إذا امركم) إلى فرض منطقهم  
وشروطهم: (والله لتفعلن، أو لتعزلن، أو لتقتلن)، وهكذا يقف كل متلفظ بملفوظه — على الدوام — فى  
مقابل الآخر، المنكر فى مقابل المثبت، دون أن يتمكن الأول — عبر الحوار — من تغيير قناعة الآخر،  
من إنتاج معرفة (يقينية) بديلة أو مضادة، بل يبدو فعل الآخر المثبت أكثر حضوراً وفعالية وإقناعاً،  
عندما يتضامن معه السارد صراحة فى الحوار الأول، بالتحول من ضمير الغائب إلى المتكلم/ السارد  
بوصفه مشاركاً لأهل مصر فى حوارهم مع «عثمان»: (قالوا: غلامك .. قالوا: جملك ← قلت خاتمك)؛  
وعندما يتواصل الحوار، يبدو الآخر أكثر جرأة وقوة، يأمر، وينهى، ويقسم، ويملك وحده تحديد  
الخيارات الممكنة انطلاقاً من وجهة نظره فقط: (اعزل، استعمل، اردد، والله لتفعلن أو لتعزلن، أو لتقتلن،  
انظر أو دع)، كما يبدو أقوى حجة، فى ظل تضامن السارد معه، وتأكيده لتصوراته، خاصة أن الآخر  
قد أظهر أكثر من مرة استعداداً للمصالحة، بالاستجابة لوعود «عثمان»، ولدور الوسيط، مما يعنى —  
فى النهاية — أن «عثمان» هو المسؤول عن هذا الانفصال أو الانقطاع، وأنه — من ثم — غير مؤهل  
للأمر، ولا سبيل — عندئذ — لإنهاء هذا الوضع إلا بإقصائه: (.. لتعزلن أو لتقتلن).

ولا تتمكن الأطراف الأخرى — غير طرفى الصراع (عثمان من ناحية، وأهل مصر وأهل  
المدينة من ناحية أخرى) — المتضمنة فى الخبر (فى هذه الوحدة) من إنهاء حالة الانفصال. ومن كان  
منها مؤهلاً — أو يبدو أنه كذلك كما يشير النص — للقيام بدور إيجابى ما بين مناصحة أو مساندة أو  
مناصرة — لم يتمكن من تعديل الحالات والأفعال باتجاه إلغاء الانفصال والصراع، تحكمه فى ذلك  
توجهات ومواقف أو مصالح، فى علاقته بـ «عثمان»، يفصح النص عن بعضها. فـ «معاوية» يتبأطاً

فى مناصرة «عثمان» عندما كتب إليه: («.. ابعت إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول» - ص. ٦٦٣)، منتظراً عما يسفر الخلاف، كارهاً إظهار مخالفة أصحاب رسول الله (ع)، وقد علم اجتماعهم (ص. ٦٦٤). كما أن كلاً من أهل الشام وأهل البصرة الذين بعث إليهم بكتاب واحد يستنفرهم ويستنجدهم على عجل: («.. فإن كان عندكم غياث، فالعجل العجل، فإن القوم معاجلي» - ص. ٦٦٣) - يجتمعون، ويقرأون الكتاب، ويقوم فيهم الخطباء، فيسارع الناس، ويسيروا قاصدين المدينة، حتى إذا كان أهل الشام بواى القرى، وأهل البصرة بصرار من الرّبدة ناحية المدينة - بلغهم مقتله، فرجعوا (ص. ٦٦٣). يستنجدهم على عجل، فلا يصلون إليه قبل قتله، رغم أن الثوار: («.. حصروه أربعين ليلة» - ص. ٦٦٤).

أما «على بن أبى طالب» فقد أبطل «عثمان» - بنكته العهد - وساطته وفاعليته أكثر من مرة، فعندما يطلب منه «عثمان» التوسط بينه وبين الثوار: («.. ارددهم عنى، فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون، وأن أعطيتهم الحق من نفسى ومن غيرى ..») - ص. ٦٦٤، يجيبه «على»: («.. قد كنت أعطيتهم فى قدمتهم الأولى عهداً من الله: لترجعن عن جميع ما نعموا، فرددتهم عنك، ثم لم تف لهم بشئ من ذلك، فلا تغرنى هذه المرة من شئ، فإنى معطيهم عليك الحق..») - ص. ٦٦٤. و«على» إذ يقوم بهذه الوساطة، فهو يعلن تضامنه مع الحق الذى ليس إلى جانب «عثمان». وهو - فى هذا - ليس متحاملاً على «عثمان»، فهذا الأخير يعترف - بصوته المباشر - بخطئه المتكرر: («قال»: يا أبا الحسن؛ إنه قد كان مع الناس ما قد رأيت، وكان منى ما قد علمت..») - ص. ٦٦٣، ٦٦٤، وهو اعتراف نقلته هذه الوحدة قبل العبارات السابقة بقليل، فى مشاورة «عثمان» لنصحاءه وأهل بيته: («قال: إن القوم لن يقبلوا التعليل، وهم محملئ عهداً. وقد كان منى فى قدمتهم الأولى ما كان، فمتى أعطهم ذلك، يسألونى الوفاء به!» - ص. ٦٦٣)؛ هذا الاعتراف، وما يتضمنه من رغبة فى المراوغة والمطاوله إلى حد ما، تجاوب معها نصحاءه: («فأشاروا عليه أن .. يعطيهم ما يرضيهم، ليطاولهم حتى يأتيه الأمداد» - ص. ٦٦٣)، ومن بينهم (أى النصحاء) «مرون بن الحكم»: («.. : يا أمير المؤمنين، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكائرتهم على القرب» - ص. ٦٦٣)؛ هذا الاعتراف الذى يخفى رغبته فى المراوغة والمطاوله، عمل «على» على أن يستوثق من صدق باطنه، من صدق «عثمان» فى تعهداته، وهو ذاته ما يطلبه الثوار: («.. لا نرضى بقول دون فعل» - ص. ٦٦٤). فهم - بذلك - يطلبون حقاً، كما يطلبه «على» ويسعى إليه بوساطته. إنه استوثاق ممن يعرف بغدر وعدم وفاء وتكرر لوعوده وأفعاله. ويتضامن السارد مع وجهة نظر كل من «على» والثوار بصدد ضرورة الاستوثاق من «عثمان»، إذ يتسلل إلى منطوق «على» عندما يحكيه بصوته: («وكتب [أى «على»] بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً.. أخذ عليه فى الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق، وأشهد عليه ناساً من وجه المهاجرين والأنصار» - ص. ٦٦٤). فما يرويه السارد من فعل لـ «على» فى قوله: (أخذ عليه فى الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق) - إنما يتضمن تقييم السارد ذاته للعهد بأنه لم يقطع على أحد من الخلق من قبل: على ما فى ذلك من مبالغة تسوغها معرفة (مستقبلية) بعاقبة عدم الوفاء فى هذه المرة. فى ضوء هذه المعرفة - إلى جانب ما صنعه «على» من

كتابة وتوثيق وإشهاد — اكتسب العهد صفة بالغة التأكيد والخطورة، ما كان لـ «عثمان» أن يتجاهلها، ومن هنا كانت المبالغة في تقييم السارد، على نحو لا يخلو أيضاً من تعريض وتسفيه.

### (٥)

لا يقف «الطبرى» بعيداً عن مروياته، على خلاف ما يعلن أو يتظاهر، بالاندفاع نحو السند، من أجل الارتداد بالمروى إلى أصله المباشر، ونفى أى تدخل للوسطاء أو الناقلين، أى كل من تتضمنهم السلسلة الإسنادية. غير أن إسناده، بما عليه من اختلال وانقطاع وعدم تواصل — يعيه «الطبرى» المحدث، مع ما يصاحبه حينئذ من تحريف للمروى، خاصة فى ظل تحول المسموع إلى مقول ومحكى، وتحول المتلقى إلى باث؛ إن الإسناد — فى هذه الحالة — يصير «إيهاماً» يخفى تدخلاً أو حضوراً داخل المروى، تحركه الأيدلوجيا أكثر مما تقيدته المعرفة أو الحقيقة التاريخية التى ليست مقصداً واضحاً ومعلناً لـ «الطبرى». فتدخله يتجاوز حدود الانتقاء والاختيار والتجميع والتنظيم، إلى إعادة صياغة المروى بوصفه قولاً أو خطاباً لا محتوى؛ ومن هنا لم تخضع وحدات الخبر فى بنائها وتتابعها للمسار الزمنى الكرونولوجى، بل شهدت تكرارات وعودات وتقاطعات، وحتى تعارضات، بما يبتعد بالمروى عن أحادية الدلالة إلى مسالك وآفاق تأويلية متعددة، وخلال صياغة المروى يتجلى حضور السارد/ «الطبرى» ويتنوع، فقد يتستر خلف ملفوظ الشخصية عند نقله، أو يتسلل إليه ويتخلله بتقديمه فى صورة الخطاب غير المباشر (الحر)، وقد يطل بصوته فى شكل تقييمات، تأكيدات، إيضاحات للمروى، وقد يغدو وعياً مشخفاً ضمن المروى.

## هوامش شعرية السرد التاريخي

- ١- فى معرض حديث P.Ricoeur عن التفسير السببى وفق ما أسماه منطق Singular Causal Imputation، الذى يعنى تفسير أحداث معينة، وقعت بالفعل، ضمن مسار محتمل غير واقعى، لمعرفة ما يمكن أن يظهر من نتائج مغايرة، على نحو تفضى المقارنة بينها وبين المسار الواقعى إلى إبراز ما هو حاسم وذو أهمية تاريخية من الأحداث، أى إبراز السببية التى لا يمكن اختزالها إلى الضرورة المنطقية التى يعمد إليها التفسير باستخدام القوانين، باتجاهه نحو العلاقات السببية المنطقية غير المتغيرة بين أنماط من الأحداث؛ فى معرض حديثه هذا يذكر Ricoeur تأكيد R.Aron ودفاعه عن الطبيعة الاحتمالية للتفسير السببى – الموضحة هنا – ضد «وهم القدرية» التى تخلقها استعادة الماضى، بإضفاء يقينية المستقبل على الماضى:
- Paul Ricoeur (1983), **Time and Narrative**. Trans. K. McLaughlin and D. Pellauer. (University of Chicago Press, Chicago-London, 1984), Vol.1, pp. 188, 189.
- ٢- David Carr (1986), **Time, Narrative and History**. (Indiana University Press, Bloomington – Indianapolis, 1991), p. 173.
- ويذكر «بول هاميلتون» أن إحياء الماضى عند «دولوز» بوصفه اختلافاً لا يتحدد مضمونه إلا فيما بعد:
- بول هاميلتون، «التاريخية والنقد التاريخي»، ترجمة: اسماعيل عبدالغنى. ضمن: موسوعة كمبريدج فى النقد الأدبى: ٩-القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية. تحرير: ك نلوف (وآخرين). (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م)، ص. ٥٠.
- ٣- P. Ricoeur (1985), **Time and Narrative**. Trans. K. Mclaughin and D. Pellauer. (University of Chicago Press, Chicago-London, 1988), Vol.3, p. 79.
- ٤- ديفيد كوزنز هوى، **الحلقة النقدية: الأدب والتاريخ والهمنبوطيقا الفلسفية**. ترجمة: حالدة حامد. (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م)، ص. ٢٠٩.
- ٥- بول ريكور، **من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل**. ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية. (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١؛ ٢٠٠١م)، ص. ١٣. وتذكر «مارى تريز عبدالمسيح» – استناداً إلى M. de Certeau وحججه من أجل مفهوم جديد للتاريخ بوصفه إنتاجاً – أن الوقائع التاريخية تخضع للتأويل بوصفها علامة على فعل، بحيث تغدو منتجاً أو نسجاً للكتابة أو الخطاب التاريخي وآلياته فى إنتاج المعنى:
- مارى تريز عبدالمسيح، «القراءة التاريخية للنصوص وكتابة النصوص التاريخية»، **مجلة فصول**. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع٦٧، صيف/ خريف ٢٠٠٥م)، ص. ١٧٤.
- ٦- Hayden White (1978), **Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism**, (The Johns Hopkins University Press, Baltimore- London, 1985), p. 104.

- Roland H. Carpenter (1995), **History as Rhetoric: Style, Narrative and Persuasion**. (University of South Carolina Press, Columbia, 1995), p.4. -٧
- P. Ricoeur (1983), Time and Narrative. Vol. 1, p. 164. -٨
- بول ريكور، من النص إلى الفعل ص. ٨. -٩
- يرجع Carpenter معقولية السرد ومقبوليته إلى ما بعده بديهية أن البشر — بصورة أساسية -١٠  
— حكاؤون/ رواة، كائنات سردية: (History as Rhetoric. P.6.)
- ١١ تعد الطبيعة السردية للتاريخ وللكتابة التاريخية واحدة من أبرز القضايا المطروحة في النظرية التاريخية المعاصرة، والتي ارتبطت بالجدل حول طبيعة التفسير التاريخي، ما بين شرح التاريخ بوصفه علماً يعتمد القوانين العامة الشاملة، وتأويله بالبحث فيما يكمن خلف الأفعال الإنسانية من دوافع ونوايا وأفكار ومشاعر، اعتماداً على عمليات تشبه تلك المستخدمة في فهم أفعال الآخرين ودوافعهم النفسية الداخلية في الحياة اليومية العامة. وقد تزامن هذا الجدل مع انهيار نموذج القوانين الشاملة وقدرتها على تفسير الأحداث بوصفها حالات فريدة، استثنائية، عرضية؛ ومع إعادة تقييم السرد وإمكاناته والانتصار لخواصه التصويرية وقدرته التفسيرية، فكان الاهتمام المتزايد بالسرد في التاريخ/ الكتابة التاريخية، وما يرتبط بذلك من إشكاليات من قبيل: علاقة التاريخ بالقصص، وضعية التخيل في الكتابة التاريخية، دور السارد/ المؤرخ، لغة الكتابة التاريخية وأبعادها الأدبية، موضوعة الحكمة في الخطاب التاريخي... إلخ. كل ذلك في ظل الوعي بدور السرد وتوسطه في تفسير الأحداث والعمليات التاريخية، وتمثيلها في الخطاب على نحو مترابط ومتناسك، بما يجعلها مقبولة ومفهومة وواقعية. راجع في ذلك:
- P. Ricoeur (1983, 1985), Time and Narrative. Vol. 1, pp. 95-120 (Chapter 4: The Eclipse of Narrative), PP. 121-174 (Chapter 5: The Defense of Narrative). Vol. 3, pp. 180-192 (Chapter 8: The interweaving of History and fiction).
- Hayden white (1987), **The Content of the form-Narrative, Discourse and Historical Representation**. (The Johns Hopkins University Press, Baltimore- London, 2<sup>nd</sup>, 1989), pp. 26-57 (Chapter 2: The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory).
- هيدين وايت، «ميثافيزيقا السرد: الزمان والرمز في فلسفة التاريخ عند ريكور»، ضمن كتاب: **الوجود والزمان والسرد — فلسفة بول ريكور**. تحرير: ديفيد وورد. ترجمة: سعيد الغانمي، (المركز الثقافي العربي، بيروت — الدار البيضاء، ط١؛ ١٩٩٩م)، ص ص. ١٨٥-٢١٠.
- ليندا هاتشيون، «الحكي: القصص والتاريخ»، ضمن كتاب: **الحدائثة وما بعد الحدائثة**. تحرير: بيتر بروكر. ترجمة: عبد الوهاب علوب. (منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ط١؛ ١٩٩٥م)، ص ص. ٣٦٠ - ٣٨١.
- بول هاميلتون، «التاريخية والنقد التاريخي»، ص. ٣٣ وما بعدها.
- فرانسواز ريفاز، «كتابة التاريخ بين فن السرد والعلوم الدقيقة»، ترجمة: باتسي جمال الدين.

- مجلة فصول. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع٦٧، صيف/ خريف ٢٠٠٥م)، ص ١٩٠-١٩٨.
- فيليب لاکور، «القص في العمل»، ترجمة: خليل كلفت. مجلة فصول. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع٦٧، صيف/ خريف ٢٠٠٥م)، ص ٢٥١-٢٦٢.
- P. Ricoeur (1983), Time and Narrative. Vol.1, p. 177. -١٢
- يذكر Ricoeur أن كل انطولوجيا للزمن من Augustine إلى Heidegger تحاول أن تزيل عن الزمن المتعاقب المحض تلك الخواص الزمنية المؤسسة على التتابع. وهو ما انعكس في ضعف فكرة التتابع الزمني وتراجعها في الكتابات التاريخية الحالية (Time and Narrative, Vol.1, p.160) وهو ما يتبناه «نوكو» بإنكاره تصوراً للتاريخ قائماً على الاتصال والتتابع والتسلسل الأولي المباشر (وعلى سيادة الوعي والذات)، وما يرتبط بهذا من مفاهيم: التطور والتقدم (والتأثير والتأثر، والتقليد، ومركزية الأصل)؛ ويعتمد — بدلاً من ذلك — مفهوماً قائماً على الانفصال، والقطيعة، والتحول، والاختلاف، والتشكيلات والممارسات الخطابية.
- الزواوي بغوره، «الانطولوجية التاريخية والمسألة التأويلية»، مجلة فصول. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع٦٦، ربيع ٢٠٠٥م)، ص ٢٢٥.
- هيدن وايت، «ميتافيزيقا السردية...»، ص ١٩١. وانظر أيضاً حديث «بول ريكور» عن الدور التوسطي للحبكة بين الحدث والحكاية/ القصة، بين المعيش الزمني والفعل السردى، في: من النص إلى الفعل. ص ٩.
- P. Ricoeur (1983), Time and Narrative. Vol. 1, p. 157. -١٥
- P. Ricoeur (1983), Time and Narrative. Vol. 1, p. 174. -١٦
- يذكر Ricoeur وجهة نظر W.B. Gallie في اعتبار التاريخ نوعاً من جنس القصة، وفق مفهومه «متابعة قصة» following a story بوصفه مبدأً بنويماً للسرد بعامة. كما يعرض Ricoeur لنظرة H. White إلى التاريخ بوصفه «صنعة أدبية» literary artifact في مقال له يحمل العنوان نفسه، استناداً إلى ما يدخل السرود التاريخية من عناصر تخيلية مبتكرة تجعلها بمثابة قصص أو تخيلات لفظية Verbal fictions:
- P. Ricoeur (1983), Time and Narrative. Vol.1, pp. 149-155, 161-168.
- H. White (1978), Tropics of Discourse. pp. 81-100. (Chapter 3: The Historical text as Literary Artifact).
- P. Ricoeur (1983), Time and Narrative. Vol. 1, p. 177. -١٨
- H. White (1978), Tropics of Discourse. p. 82. -١٩
- وينفق «كاتارينا ميليتش» مع white عندما ترى أن أي تاريخ يتضمن قدراً من الأدب لا يمكن تفاديه:

- كاتارينا ميليتش، «تغييرات التاريخ، أو كتاب الضحك والنسيان»، ترجمة: أمل الصبان. مجلة فصول. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع٦٧، صيف/ خريف ٢٠٠٥م)، ص. ٢٠٠.
- ٢٠- ديفيد كوزنز هوى، الحلقة النقدية. ص. ٢١١.
- ٢١- R. H. Carpenter (1995), History as Rhetoric. p.6.
- ٢٢- يتحدث «هاميلتون» عن تزايد أهمية تحليل عناصر البلاغة التي تطرحها التاريخية، وكيف أن المجازات التي يستخدمها التاريخ تمثل - فى نظر التاريخية - جزءاً من محتوى التاريخ. كما يعرض Carpenter لما تحدثه العناصر البلاغية للأسلوب والسر - لدى بعض المؤرخين - من تأثيرات على القراء. ويشير - أثناء ذلك - إلى الخلاف بين المؤرخين حول إسناد تأثيراتهم إلى هذه العناصر (البلاغية):
- بول هاميلتون، «التاريخية والنقد التاريخي»، ص. ٣٣.
- ٢٣- R.H. Carpenter (1995), History as Rhetoric. p.8.
- ٢٣- يشير Ricoeur إلى أن تحول التاريخ صوب اللاواقعي Sphere of the unreal إنما يؤدي إلى تبين أو إدراك أفضل لما هو ضروري. (Time and Narrative, Vol. 1, p. 184).
- ٢٤- P. Ricoeur (1985), Time and Narrative. Vol.3, p. 192.
- ٢٥- الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١؛ ١٩٨٧م.
- ٢٦- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة فى التراث التاريخى العربى. (دار المعارف، القاهرة، ط٢؛ ١٩٨٥م)، ص. ١٠٠. وهو ما يؤكد أيضاً «محمود اسماعيل» فى سياق إشارته إلى ما انطوت عليه أعمال المؤرخين الرواد من قدر غير ضئيل من الغيبية والأسطورية:
- محمود اسماعيل، سوسولوجيا الفكر الإسلامى - ج١: طور التكوين. (سينا للنشر والانتشار العربى، القاهرة - بيروت، ط٤؛ ٢٠٠٠م)، ص. ٢٥٣.
- ٢٧- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس. (دار صادر، بيروت، ط١؛ ١٩٧٨م)، ج٤، ص. ١٩١. وينقل «عدنان ملحم» كثيراً من الآراء التى تبرز القيمة العلمية والتاريخية للطبرى ولكتابه «التاريخ»:
- عدنان محمد ملحم، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (القرن الأول - القرن الرابع الهجرى) - دراسة تاريخية منهجية. (دار الطليعة، بيروت، ط٢؛ ٢٠٠١م)، ص. ٦٦، ٦٧.
- ٢٨- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك. مج.١، ص. ١٣.
- ٢٩- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك. مج.١، ص. ١٢.

- ٣٠- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك. مج. ١، ص. ١٣.
- ٣١- ابن حجر. أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ)، **تقريب التهذيب**. تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف. (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢؛ ١٩٧٥م)، ج ١، ص. ٤٠٨.
- ٣٢- يشير «عدنان ملحم» إلى عدم اطمئنان بعض الدراسات الحديثة إلى روايات «سيف بن عمر» التاريخية فى مواضيع مختلفة، مثل: الردة، والفتوح، ودور «عبدالله بن سبأ» فى الفتنة. إلى حد وصفته هذه الدراسات بالوضع والاختلاق فى التاريخ (المؤرخون العرب والفتنة الكبرى. ص. ٧٢).
- ٣٣- انظر ما رواه «ابن حجر» عن «الواقدي» ومنزلته فى الحديث والعلم (تقريب التهذيب. ج ٢، ص. ١١٧).
- ٣٤- ينقل «الخطيب البغدادي» عن بعض المتأخرين من الفقهاء قولهم: "... وإذا قال [أى: من روى أخبار النبى (ص)]: «حدثنا» أو «أخبرنا» فلان عن فلان، ولم يقل: «حدثنا» فلان أن فلاناً حدثه، ولا ما يقوم مقام هذا من الألفاظ - احتمال أن يكون بين فلان الذى حدثه وبين فلان الثانى رجل لم يسمه...".
- الخطيب البغدادي. (أبو بكر أحمد بن على (ت ٤١٠هـ)، **الكفاية فى أصول علم الرواية**. تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم بن مصطفى آل بحبح الدمياطى. (مكتبة ابن عباس، سموند، ٢٠٠٢م)، مج. ٢، ص. ٢٢٩.
- ٣٥- يقول «الخطيب البغدادي»: "أما قول المحدث «قال» فلان، فإن كان المعروف من حاله أنه لا يروى إلا ما سمعه، جعل ذلك بمنزلة ما يقول فيه غيره «حدثنا». وإن كان قد يروى سماعاً وغير سماع، لم يُحتج من رواياته إلا بما يُبَيّن الخبر فيه" (الكفاية. مج. ٢، ص. ٢٢٥).
- ٣٦- محمد القاضى، **الخبر فى الأدب العربى - دراسة فى السردية العربىة**. (منشورات كلية الآداب بمنوبة ودار الغرب الإسلامى، تونس - بيروت، ١٩٩٨م)، ص. ٣١٦.
- ٣٧- يعرف David Crystal «المتتالية» بأنها: ".. التتابع الذى يمكن ملاحظته بسهولة لبعض الوحدات التركيبية فى نص مكتوب أو عبارة منطوقة. وهذا التتابع يمكن أن يكون خطياً، عندما تكون العلاقات بين مجموعة من الوحدات المتتابعة القريبة من بعضها .. وقد يشمل التتابع علاقات غير خطية، كما فى حالة الاتفاق/ التشابه بين مجموعة كلمات موجودة فى تراكيب منفصلة..". كما يشير «رشيد بن مالك» إلى أن مصطلح «المقطوعة» (أى المتتالية) sequence يخص - فى السيميائيات السردية - للدلالة على الوحدة النصية التى تصدر عن التقطيع، وما يضمن إدراكها هو حضور الفواصل التى تساعد على تحديد الحدود وهنا تكمن قيمة شارة «بارت» إلى أن المتتالية تفتح عندما لا يكون لأحد حدودها أى سابق متزامن، وتتعلق عندما لا يكون لحد من حدودها أى ناتج:
- David Crystal (1985), **A Dictionary of Linguistics and Phonetics**.

(Basel Blacknell, 1985), pp. 277, 278.

رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص. (دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٠م)، ص ص. ١٨٩، ١٩٠.

رولان بارت، «التحليل البنيوي للسرد»، ترجمة: حسن بحراوى وآخرين. ضمن كتاب: طرائق تحليل السرد الأدبي. (منشورات اتحاد كتاب المغرب، الدار البيضاء، ط. ١؛ ١٩٩٦م)، ص. ٢١.

٣٨- يحدد «بروب» الوظائف بقوله: " .. إننا نفهم من الوظيفة فعل شخصية قد حدد من وجهة نظر دلالته فى سيرورة الحكمة .. العناصر الثابتة والمستمرة فى الخرافة هى وظائف الشخصيات، مهما تكن هذه الشخصيات، ومهما تكن طريقة إنجازها لهذه الوظائف، إن الوظائف هى الأجزاء المكونة الأساسية للخرافة."

فلاديمير بروب، مورفولوجية الخرافة. ترجمة: إبراهيم الخطيب (الشركة المغربية للنشر المتحدين، الدار البيضاء، ط. ١؛ ١٩٨٦م)، ص. ٣٥.

٣٩- أى عبارة : «قال أبو جعفر» (الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، مج. ١، ص. ١٢).

٤٠- يذكر «العروى» أن العنوان هو تعريف وصفى، وهو بمثابة المفهوم الجامع عند «ولش» ، ويعنى: «تلك العملية التى يقوم بها المؤرخ عندما يجمع أحداثاً مختلفة تحت مفهوم واحد»، علماً بأن «واجب المؤرخ الدائم هو أن يعرف تطورات متلاحقة بدون انقطاع».

عبدالله العروى، مفهوم التاريخ. (المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء - بيروت، ط. ٤؛ ٢٠٠٥م، ص. ٢٤٤.

٤١- «الإرصاد» mise en abyme - فيما يصرح «جينيت» - هو شكل منظر من علاقة المماثلة التى هى علاقة موضوعاتية thematic تربط الميثا- سرد أو الحكاية القصصية التالية بالحكاية الأولى، التى تتدرج فيها:

- حيرار جينيت، خطاب الحكاية - بحث فى المنهج. ترجمة: محمد معتصم وآخرين. (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. ١؛ ١٩٩٦م)، ص. ٢٤٤.

٤٢- ميشيل فوكو، حفریات المعرفة. ترجمة: سالم يفوت. (المركز الثقافى العربى، بيروت - الدار البيضاء، ط. ٢؛ ١٩٨٧م)، ص. ١٣٢.

٤٣- راجع المقصود بالخطاب أو الأسلوب غير المباشر الحر، وكيف أنه يحتفظ ببعض خصائص كلا الخطابين: غير المباشر والمباشر، أى يحتفظ ببعض خصائص كلا الخطابين: غير المباشر والمباشر، أى يجمع بين خطاب السارد وخطاب الشخصية، أو يتجاوزه أو يتوزعه ذلك الذى يكون للسارد، وذلك الذى يكون للشخصية؛ راجع ذلك فى:

-آن بانفيلد، «الأسلوب السردى ونحو الخطاب المباشر والخطاب غير المباشر»، ترجمة: بشير القمرى. ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي. ص. ١٤٦.

-Seymour Chatman (1978), **Story and Discourse-Narrative Structure in Fiction and Film**. (Cornell University Press, Thaca- London, 6<sup>th</sup>,

1993), p. 203.

٤٤- يعد الاستقلال التركيبى والتغيمى والانجازى هو ما يميز الجمل الاعتراضية ويؤكد خارجيتها بالنسبة للجملة الرئيسية، دون أن ينفى هذا دورها بالنسبة للجملة الرئيسية التي تعترضها، من تقوية لقوتها الإنجازية أو إضعافها، انظر فى ذلك:  
-أحمد المتوكل، **الجملة المركبة فى اللغة العربية**. (منشورات عكاظ، الرباط، ط.١؛ ١٩٨٨م)، ص ص. ٣٩ - ٤٦، وبخاصة ص ص. ٤٠، ٤١.